سورة لقمان
دراسة بلاغية

الجزء الأول
من بداية السورة وحتى نهاية الآية رقم (١٩)

د/ أحمد إبراهيم محمد على
مدرس البلاغة والنقد
فى كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات - ببنى سويف
جامعة الأزهر

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

سورة لقمان
دراسة بلاغية

الدكتور
أحمد إبراهيم محمد على
مدرس البلاغة والنقد فى كلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
ببنى سويف– جامعة الأزهر

المقدمة

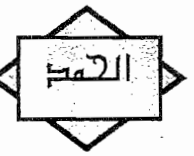

لله الذى أنزل الكتاب على عبده هداية ورحمة للعالمين، نسبحه، ونستعين به، ونستغفره إنه هو العلى العظيم، ونصلى ونسلم على من أدبه ربه وأحسن تأديبه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد،

فإن من رحمة الله تعالى بالإنسان، أن أرسل إليه الرسل ليكونوا مبشرين ومنذرين، وأيدهم بالمعجزات القاهرة البالغة لتكون دليلاً على صدقهم، وبرهاناً على رسالتهم. فكان من تأييد الله لموسى – عليه السلام –، أن يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى، ويخرج يده فإذا هى بيضاء للناظرين. وكان من تأييد الله لعيسى – عليه السلام – أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله.

وكان من تأييد الله لمحمد – عليه الصلاة والسلام – أن أنزل عليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، ليكون معجزة خالدة – على مر العصور والأجيال إلى يوم القيامة– تقف شاهدة على نبوة الرسول ﷺ، متحدية الفصحاء والبلغاء فى كل زمان ومكان، وكل نابه فى بابه، أن يأتوا بمثل سورة منه، إن كان

فى نفوسهم ريب فى أنه كلام الله المحكم ، أنزله على نبيه المرسلﷺ .

وقد كان لهذا الكلام – بما له من سحر وبيان، وقوة وسلطان شهد بهما أرباب الفصاحة والبيان، من أصحاب اللغة وأهل اللسان – أثر واضح لا ينكره إلا جاحد منكر فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بما أودعه الله من الهدى والرحمة، والنور والحكمة، وبما ضمنه من براهين ساطعة على وحدانيته، وقدرته، من حديث عن خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض لئلا تميد وتضطرب، وإنزال الماء من السماء لينبت به ضروباً مختلفة من الزروع والثمار، وبث الدواب فى الأرض،وتسخير البحار لتجرى الفلك فيها بنعمته .

وقد جاء ذلك فى أسلوب أبدع، وأعجب، وأحكم، مما عهده أرباب الفصاحة والبيان، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته، ولم يسعهم إلا الإقرار بأنه كلام رب العالمين .

ولقد ظل هذا الإبداع، وتلك الإعجاز، ولم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وغايتهم التى تقصر عن بلوغها الهمم .

ولقد سبق أن تكلم فى بلاغة القرآن وإعجازه علماء، بما يشبه الفيض الإلهى،والعلم اللدنى،كالباقلانى،والرمانى،وعبدالقاهر،والخطابى، ومن تبعهم من العلماء، يكشفون تقاباً عن وجه إعجازه فى أسلوبه ونظمه الفريد،بما فيه من تقديم وتأخير،وحذف وذكر،وإظهار وإضمار، وإيجاز وإطناب، وتشبيه وتمثيل إلى غير ذلك من أدوات البلاغة المختلفة، وكيف أن ذلك قد جاء مطابقاً للحال والسياق .

وقد أردت بهذا العمل أن أضع قدمى على بداية هذا الطريق الشائك الطويل، راجيا المولى – عزوجل– أن يقبلنى فيه، وأن يلهمنى التوفيق والسداد .

ولقد حاولت قدر استطاعتى أن أشير إلى ما هدانى الله – سبحانه– إليه من مواطن البلاغة، وأسرار التعبير فى هذه السورة، مبينا وجه ارتباط الآيات ببعضها، وطريقة سير المعانى ونموها داخل السورة، وتفرعها والتقائها، وارتباط أولها بآخرها، وآخرها بأولها، مستعيناً فى ذلك بما تيسر لى من أقوال العلماء، والمفسرين والبلغاء وقد أخرجت هذه الدراسة فى جزءين ينتهى الأول منهما عند نهاية قصة لقمان عليه السلام ، ويبدأ الثانى – إن شاء الله تعالى– من الآية رقم (٢٠) وحتى نهاية السورة ، ولا يخلو ذلك من مناسبة تتجلى للقارئ بعد الوقوف على المقاصد والموضوعات العامة التى تدور حولها آيات السورة.

وقد جاء الجزء الأول من هذه الدراسة فى مقدمة وتمهيد وأربع مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: التنويه بحكمة آيات القرآن الكريم وما يستلزمه ذلك من حكمة الحق – سبحانه وتعالى –

المبحث الثانى : بيان موقف الناس من تلك الآيات .

المبحث الثالث: الإشارة إلى قدرة الحق – سبحانه وتعالى – فى خلق السماوات والأرض وما فيهما وما يستلزمه ذلك من حكمته سبحانه.

المبحث الرابع : أنموذج لمن أتاه الله الحكمة فانتفع بها .

والله أسأل أن يغفر لى ذلتى وأن يقبلنى عنده من التوابين أنه سميع قريب مجيب الدعاء

بنها فى :

الأول من شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٨هـ

الموافق ٣٠ من مارس ٢٠٠٧

د/ أحمد إبراهيم محمد على

تمهيد

أولاً: مقاصد السورة من الآية رقم (١) وحتى نهاية الآية رقم (١٩):

افتتحت السورة بالإشارة المفيدة تعظيم وتشريف وعلو شأن الآيات، لأنها آيات الكتاب الحكيم، والتى تستلزم حكمته حكمة منزلة فى أقواله وأفعاله وكماله فى صفاته.

فكانت البداية معربة عن هذا، ومثبتة لله الحكمة والكمال فى الصفات والأفعال، ومنزهة له عن كل نقص، بطريق شريف، ينبئ عن فخامة وروعة، من جهة أنه استدلال على وجود الشئ، وصفاته، من خلال الوقوف على آثاره، التى هى أقواله وأفعال.

فإذا كانت الآثار كاملة لا نقص فيها ولا قصور، محكمة لا خلل فيها ولا اضطراب، كانت داله على كمال وحكمة قائلها وفاعلها.

وهو أسلوب يبث فى النفوس مهابة وروعة، وإجلالا وتعظيما لمن دلت على حكمته أقواله وعلى كماله أفعاله، فإذا ثبت له ذلك بطريق التفرد، ثبتت إلاهيته، واستحقاقه العبودية الخالصة.

وإذا كانت الآيات بهذه الدرجة من الحكمة، فلا شك أنها تكون هادية وراحمة، بل هى عين الهداية والرحمة لمن تطهرت نفسه، وتطيبت لتكون أهلا لاستقبال تلك الفيوضات، وهذه الرحمات بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين بالآخرة.

هذا الصنف من الخلق يكون باستقباله هداية الآيات ورحمتها على هدى من ربهم، وإذا كانوا كذلك كانوا هم المفلحون.

فكان فى ذلك إغراء لكل عاقل، بأن ينخرط فى سبيل المحسنين، التى هى سبيل الله، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. والإيمان باليوم الآخر.

ثم فرع عليه التنويه بضلال فئة عزفت وأعرضت عن ذلك، هابطة من هذا الإعراض، إلى الصد عن سبيل الله،والاستهزاء بها،

استكباراً وإعراضاً عن الحق مع وضوحه، فكان جزاؤهم من جنس ما سلكوا، وما قدموا استهزاء، وسخرية، مع العذاب الأليم. قال تعالى: "فبشره بعذاب أليم" وهو بالطبع مغاير لثواب الفريق الأول، فهو صاحب جنات النعيم.

وهذا يعنى أن مطلع السورة يتضمن الآتى:

١- التنبيه على حكمة الله – سبحانه – وكماله فى صفاته، وأفعاله. عن طريق الإشارة إلى آيات كتابه المحكم، وهدايتها ورحمتها. والتى تستلزم ووحدانيته.

٢- ذكر حال الناس وموقفهم من ذلك التنبيه، وتلك الإشارة. وانقسامهم إلى فريقين، وذكر ما يستحقه كل فريق.

٣- التنبيه على البعث من خلال التنويه بشأن المحسنين الذين تميزوا عن غيرهم، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين باليوم الآخر والإشارة إلى ما أعده الله للفريق الثانى من عذاب فى هذا اليوم.

٤- التأكيد على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يدعو إليه. لأنه إذا ثبتت حكمة الله المفادة من حكمة الآيات المنزلة على رسول الله ﷺ، وثبتت صحة ما أخبر الله به من وجود ذلك اليوم الذى يبعث فيه الناس للحساب ثبت بطريق اللزوم صدق رسول الله فى كل ما يدعوا إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى، ونبذ عبادة من سواه مع ما يتطلبه ذلك من طاعة لله والرسول فى كل أمر أو نهى.

ولما كانت حكمة الله سبحانه وتعالى يستدل عليها بإحكامه أقواله وأفعاله، ذكر جانبا من هذه الأفعال، وهى خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواس فى الأرض، ونشر الدواب فيها. وإنزال الماء من السماء، وإنبات الزروع والثمار المختلفة، وهى

أفعال تامة كاملة، بدليل أنك لا ترى فطوراً فى السموات، ولا تشعر باضطراب فى الأرض، ولا تجد ملحاً فى الماء النازل من السماء.

قال تعالى مشير إلى كمال تلك الأفعال وكيف أنها تنبئ عن حكمة فاعلها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾.

وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2].

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[3].

فدل بإحكام أفعاله على حكمته، وكماله المستلزم وحدانيته، وتفرده بالإلهية، ولذلك يقول: "هذا خلق الله" مشيراً إلى غاية الكمال، ونهاية الحكمة فى الأفعال، نافيا أن يكون لغيره نصيب منها فى أبلغ أسلوب بقوله: "فأرونى ماذا خلق الذين من دونه".

يقول الإمام البقاعى: عند مقصود سورة لقمان "مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله – سبحانه – فى أقواله وأفعاله"[4].

---

(١) الملك: ٣، ٤.
(٢) النبأ: ٦، ٧.
(٣) النبأ: ١٤، ١٥، ١٦.
(٤) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣.

ثم عاد ليخبر عن بعض من آتاهم الله الحكمة فانتفعوا بها، فى حياتهم، فوضعوا الأشياء فى مواضعها، فكان من آثارها الاعتراف بوحدانية الله، والإقرار بربوبيته، والتدرج للحض على عدم الإشراك به سبحانه.

ثانيا :تسمية السورة :

سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لما فيها من ذكره، وذكر جمل من حكمته التى أدب بها ابنه.

وهى من السور المكية حسب ما رواه البيهقى من دلائل النبوة عن ابن عباس – رضى الله عنهما-. وفى رواية النحاس فى تاريخه عنه: استثناء ثلاث آيات منها وهى من قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

فإنها نزلن بالمدينة بسبب مجادلة أحبار اليهود للرسول -ﷺ- حيث قالوا له:بلغنا أنك تقول:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

(١) لقمان: ٢٧، ٢٨، ٢٩.
(٢) الإسراء: ٨٥.

أعنيتنا أم قومك؟ فقال - ﷺ-: كلا أردت. قالوا: ألست تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شئ. فقال ﷺ: إنها فى علم الله قليل، فأنزل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ ﴾ .. إلى آخر الآيات .

وقد نزلت السورة عند ما سألت قريش رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ولده، وعن بر والديه.

المبحث الأول
التنويه بحكمة آيات القرآن الكريم
وما يستلزمه ذلك من حكمة الحق سبحانه وتعالى

يقول الحق سبحانه : ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ .

افتتح سبحانه – هذه السورة بقوله " الم"– تبكيتاً للمشركين، وإيقاظاً لنظرهم فى أن هذا الكتاب الذى يتلى عليهم والذى تحداهم الحق – إن كانوا يشكون فى أنه منزل من عنده – أن يأتوا بسورة من مثله – مكون ومنظوم من الحروف التى ينظم منها القوم أشعارهم وكلامهم، وكأن القرآن الكريم عندما يسوق هذه الحروف مساق التهجى، ويفتتح بها تلك السورة – وغيرها– يغريهم بالمعارضة، ويستأنس لأنفسهم بالشروع فيها، فإذا عجزوا وانقطعت أطماعهم عدموا كل عذر وكل حجة، ولم يعد أمامهم إلا التصديق، وزال ما فى أنفسهم من ريب مزعوم من كون القرآن منزل من عند الله سبحانه وتعالى.

ويؤيد هذا الكلام ويؤازره، أنك تجد هذه الحروف قد وردت فى أوائل السور التى نزلت بمكة، عدا البقرة وآل عمران، ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة إلى المدينة.

وقد كان قصد التحدى فى القرآن النازل بمكة – إلى جانب التركيز على قضية التوحيد من خلال النظر والتأمل ظاهراً جلياً، لإثبات أن القرآن ليس من تأليف البشر، ولا من كلامهم،وإنما هو

كلام رب العالمين فإذا ثبت هذا المعنى واستقرت تلك الحقيقة فى وجدان القوم وعقولهم، جاء التشريع بعد ذلك بالأمر والنهى فلا يكون منهم إلا القبول والإذعان.

وهناك أمر آخر يوحى به تصدير تلك السور بهذه الحروف، وهو حمل القوم على الاعتراف بنبوته ﷺ، من جهة أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يُعرف أنه جلس إلى معلم قط. فإذا نطق بأسامىّ هذه الحروف دل ذلك على أنه نبى يوحى إليه.

يقول الزمخشرى "أن ترد السور مصدرة بذلك، ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامى الحروف، فإنه كان مختصا بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمر التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1] فكان حكم النطق بذلك – مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئا من أهله – حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن، التى لم تكن قريش ومن دان بدينها فى شئ من الإحاطة بها، فى أن ذلك حاصل له من جهة الوحى، وشاهد بصحة نبوته"[2].

وهذه الحروف التى وقعت فى أوائل السور كانت مثار حيرة، ومصدر أقوال متعددة،وأبحاث كثيرة وردت كلها عند حديث المفسرين

(١) العنكبوت :٤٨.
(٢) الكشاف جـ١، ص.

عن تأويل قوله "آلم" فى أول البقرة. وقد ذكرت منها أقواها وأولاها بالقبول، وأكثرها مناسبة للحديث عن بلاغة القرآن الكريم.

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾[1].

وتلك اسم إشارة يشار به للمؤنث البعيد، وأشير به هنا إلى ما سيذكر فى هذه السورة، وعلى هذا يكون المشار إليه مقدراً فى الذهن، مترقب الذكر.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى "آلم" باعتباره حرفاً مقصوداً للتعجيز، أى ذلك المعنى الحاصل من التهجى، أى تلك الحروف باعتبارها من جنس حروفكم هى الكتاب، أى منها تراكيبه، فما أعجزكم عن معارضته؟!فيكون "آلم" جملة مستقلة مسوقة للتعريض.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى الآيات التى ستذكر فى هذه السورة، أو المعروفة لديهم يومئذ.

والألوان البلاغية التى اشتمل عليها البيان القرآنى هنا، إنما تكشف عن شرف تلك الآيات وعلو منزلتها، وذلك من خلال الإشارة إليها باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، إظهاراً لرفعة شأنها، تمثيلاً لها بالشئ المرفوع فى عزة المنال، وهو أسلوب شائع فى الكلام البليغ.

---

(١) لقمان : ٢،٣،٤،٥.

وعزة منال الآيات، ورفعة شأنها – إنما تتجلى فى عجزهم عن معارضتها، مع أنها منظومة من الحروف التى نظموا منها أشعارهم وكلامهم، وبعدها عن أن تكون محلاً للريب والافتراء لما ثبت لديهم من صدق معانيها، ونفع وعظها، وإرشادها.

وقد أشار إلى هذه المعانى صاحب المفتاح عند حديثه عن مقتضيات تعريف المسند إليه باسم الإشارة، فقال:

"أو أن نقصد ببعده تعظيمه، كما تقول فى مقام التعظيم: ذلك الفاضل، وأولئك الفحول، وكقوله عز وعلا: "ألم ذلك الكتاب"(١) ذهابا إلى بعده درجة، وقولها فيما يحكيه جل وعلا: "قالت فذلكن".

ولم تقل فهذا، ويوسف – عليه السلام- حاضر، رفعاً لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به، واستبعاداً لمحله"(٢).

آيات الكتاب الحكيم:

الآيات جمع آية وأصلها فى اللغة: العلامة على المنزل أو الطريق، ثم أطلقت على الحجة، لأنها علامة على الحق. ولذلك سميت معجزة آية، كما فى قوله تعالى "فى تسع آيات إلى فرعون وقومه"وأطلقت أيضاً على الجملة التامة من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾(٣).

وكان الآيات شريفة فى نفسها وذاتها، والإشارة إليها لم تكن لتفيد هذه المعانى ابتداء، بل أكدتها،وزادتها وضوحاً وبياناً.

---

(١) البقرة: ١، ٢.
(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٧٧، ٢٧٨.
(٣) آل عمران : ٧.

ثم إن إضافة الآيات إلى الكتاب تؤكد هذه المعانى أيضاً فالكتاب على وزن: فعال بمعنى: مفعول، أى: مكتوب، وهو مشتق من كتب بمعنى جمع وضم بإحكام، لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه بعناية وإحكام.

والمقصود هنا: القرآن الكريم، والتعريف فيه للعهد، وكأن المعنى: تلك آيات الكتاب المعهود عندكم بأنه الجامع لصفات الكمال المبرأ عن كل ما تُعاب به الكتب الأخرى.

ثم وصف الكتاب "بالحكيم" بمعنى: ذى الحكمة لأنه يشمل عليها.

ويحكى الألوس كلام بعض المغاربة فى وصف الكتاب بالحكيم، وأنه من باب المجاز، لأن الوصف بذلك للتملك، والكتاب لا يملك الحكمة وإنما يشتمل عليها، ويتضمنها، فلأجل ذلك وصف بالحكيم بمعنى: ذى الحكمة(١).

وذكر الطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير، أنه من باب الاستعارة المكنية، ومقالته فى ذلك: "إن الحكيم استعارة مكنية، أو بعبارة أرشق تشبيه بليغ بالرجل الحكيم أى: الكتاب الناطق بالحكمة كالحى(٢).

غير أن اللائق بالمعنى أن يكون من باب "عيشة راضية" وإلى هذا ذهب الألوس والفخر الرازى. فيكون من باب الاسناد المجازى فإنه- أى الكتاب- منه- سبحانه - بدا.

والشىء قد يوصف بصفة مبدعه أو أن يكون الأصل: الحكيم منزله أو قائله، فحذف المضاف إلى الضمير، ويكون المعنى: تلك

(١) روح المعانى م١١ جـ٢١ ص ٦٥.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ١٤٠.

آيات الكتاب الذى أحكمه سبحانه وتعالى، فكان الحق هو فاعل الإحكام، وفعل الكامل كامل.

فيكون فى التعبير هنا – باسم الفاعل مبالغة فى وصف الكتاب بالحكمة فى أنه لكمالها فيه صار كأنه هو الحكيم قال الزمخشرى: الكتاب الحكيم: ذى الحكمة، أو وصف بصفة الله تعالى على الاسناد المجازى"[1].

"وفى وصف الكتاب بهذا الوصف براعة استهلاك للغرض من ذكر حكمة لقمان"[2].

ثم يأتى قوله: هدى ورحمة للمحسنين" منصوباً على أنه حال من الآيات، والعامل فيه ما فى اسم الإشارة من معنى الفعل ليؤكد – أيضاً– على رفعة الآيات المشار إليها وعلو شأنها. وهو مضمون الجملة السابقة.

وبيان ذلك: أن الآيات لما كانت شريفة فى نفسها، ثم أشير إليها باسم الإشارة على طريق تستلزم علو شأنها، وبعدها عن أن تكون محلاً للريب والافتراء، ثم إضافاتها للكتاب المعهود بالكمال فى نظمه وتأليفه، ومعانيه وجمعه، الموصوف بكونه حكيما.

وهذا يعنى أنها لا تكون مشتملة إلا على ما فيه إرشاد للناس، فلما جاء الوصف بالحال "هدى ورحمة" أكد تلك المعانى وقررها، وأشار إلى أن ذلك صار أمراً ثابتاً لها لا يتخلف عنها.

وقرأ حمزة "ورحمة" بالرفع على جعل "هدى ورحمة" خبراً ثانياً عن اسم الإشارة، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هى هدى ورحمه، وعلى كل فالإخبار عن الآيات أو ضميرها بالمصدر قد حصل به من المبالغة فى حصول الهداية والرحمة ما لا يكون إلا به، وما يناسب

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٧٤.

(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٤٠.

ما فى الآيات من إحكام وكمال ، حتى صارت كأنها عين الهدى وعين الرحمة لكل من راقب الله وأحسن طاعته، وتخلق بأخلاق المحسنين .

فهو على حد قولك: "رجل عدل" إذا أردت المبالغة فى وصفه بذلك،وكأن العدل قد تجسد فيه .

"للمحسنين":

الحسن: ضد القبح، والحسنة: ضد السيئة، والمحاسن فى الأعمال: ضد المساوئ، والمحسن: هو الذى ينصف الضعيف، ويعيين المظلوم، ويعود المريض، والإحسان: ضد الإساءة. وفسر النبى ﷺ- الإحسان حين سأله جبريل - صلوات الله وسلامه عليه - فقال: هو أن تبعد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1]، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[2].

وقيل الإحسان: الإخلاص،وهو شرط فى صحة الإيمان والإسلام معاً، وقيل: المراقبة وحسن الطاعة فإن من راقب الله أحسن عمله وقال أبو حيان: هم الذين يعملون الحسنات، وهى التى ذكرها كإقامة الصلاة وإيتاء الذكاء، والإيقان بالآخرة، وخص المحسنون: لأنهم الذين انتفعوا به، ونظروه بعين الحقيقة"[3].

وللتعبير هنا باسم الفاعل دلالة بلاغية "لأن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشئ من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شئ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شئ، فإذا قلت: "زيد منطلق" فقد أثبت الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئا، بل يكون المعنى فيه

(١) راجع مادة (حسن) فى لسان العرب
(٢) النحل: ٩٠.
(٣) البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ٧ ص ١٨٣.

كالمعنى فى قولك: زيد طويل، وعمرو قصير: فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضى بوجودهما على الإطلاق كذلك لا تتعرض فى قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد[1].

وعلى هذا تكون الآيات هدى ورحمة للمحسنين فى حال وجودهم على هذه الصفة، لأن زمن الحال هو الأصل فى اسم الفاعل أى أن كل من نزه نفسه وأعدها لقبول كمالات الآيات وهدايتها ورحمتها بسلوكه سبيل المحسنين، تحصل له هداية الآيات ورحمتها، بمعنى: زيادتها وثبوتها ودوامها. كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[2].

ويحصل ذلك حال نطق الآيات أو سماعها، لأن الآيات لما وصفت بالمصدر "هدى ورحمة" كان ذلك عوضاً عن الوصف باسم الفاعل: هادية وراحمة، ولأن زمن الحال هو الأصل فى اسم الفاعل؛ دل ذلك على أن المراد حال النطق بها أو وقت سماعها.

أو أن الآيات هدى ورحمة فى الماضى، بمعنى أنه حصلت بها الهداية والرحمة.

فيكون المراد بالمحسنين: من ظهر فيهم أثر هدايتها ورحمتها فصاروا كذلك، وهو مدح للآيات بمشاهدة أثرها النافع.

أو هى هدى ورحمة فى المستقبل لأن المصدر لا يدل على زمن معين.

وهذه الوفرة فى المعانى إنما حصلت من وصف الآيات بالمصدر بدل اسم الفاعل.

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق/ محمود شاكر ص ١٧٤.

(٢) سورة محمد : ١٧

وهى فى جملتها ثناء ومدح لآيات الكتاب الحكيم، وتنويه بشأنها، وتخلص لطيف للثناء على المحسنين الذين انتفعوا بهديها، واطمأنوا وسكنوا وأمنوا برحمتها.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

إما مجرور على أنه صفة كاشفة للمحسنين، أو بدل، أو بيان لما قبله، وإما منصوب أو مرفوع على القطع، وعلى كل فهو تفسير للمحسنين، على طريقة قول أوس بن حجر:

الألمعى الذى يظن بك الظن ∴ كأن قد رأى وقد سمعا

فقد حكى عن الأصمعى أنه سأل عن الألمعى. فأنشده ولم يزد عليه، وهذا ظاهر على تقدير أن يراد بالحسنات مشاهيرها المعهودة فى الدين.

وأما على تقدير أن يراد بها جميع ما يحسن من الأعمال فلا يظهر إلا باعتبار جعل المذكورات بمنزلة الجميع من باب "كل الصيد فى جوف الفرا".

وقيل إذا أريد بالحسنات: المذكورات، يكون الموصول صفة كاشفة[2].

"**يقيمون**":

فى اللسان. أقام بالمكان إقاماً وإقامة ومقاماً، فهو مشتق من "الإقامة" التى هى مصدر "أقام" الذى هو معدى "قام"، عدى إليه بهمزة الجعل، فأقامه: جعله قائما[3].

---

(١) لقمان : ٤.

(٢) روح المعانى مجلد ١١ جزء ٢٢ ص٦٦.

(٣) راجع مادة "قوم" فى اللسان.

وأصل القيام فى اللغة: الانتصاب الذى هو ضد الجلوس والاضطجاع، وإنما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يتأتى من قعود، فيقال: قام الخطيب، وقام العامل.

ومن استعمالاته المجازية: قامت السوق، إذا نفقت، كما يقال: نامت. إذا كسدت. وهو من باب المجاز المرسل إلا أنه لشيوعه ساوى الحقيقة.

ويقول الزمخشرى:

معنى إقامة الصلاة "تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها من أقام العود إذا قومه.

أو الدوام عليها والمحافظة عليها، كما قال عز وجلا: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2]

من قامت السوق إذا نفقت، وأقامها. لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشئ النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت، وأضيعت كانت كالشئ الكاسد الذى لا يرغب فيه.

أو التجلد والتشمر لآدائها، وأن لا يكون فى مؤديها فتور عنها، ولا توان. من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفى ضده قعد عن الأمر، وتقاعد عنه: إذا تقاعس وتثبط.

أو أداؤها. فعبر عن الأداء بالإقامة، لأن القيام بعض أركانها[3].

---

(١) المعارج: ٢٣.
(٢) المؤمنون ٩.
(٣) الكشاف جـ١، ص٤٩.

وما ذكره الزمخشرى يفهم منه أنه يمكن حملها على الاستعارة التبعية، أو المجاز المرسل من تسمية الكل باسم الجزء ويقال فى بيان الاستعارة:

شبه تعديل الأركان، وحفظها من وقوع الزيغ فى فرائضها وسننها وآدابها، بتقويم العود بإزالة اعوجاجه، ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام التى صارت حقيقة فيها لتسوية المعانى كتعديل أركان الصلاة وحفظها.

وإذا كانت من قامت السوق فيقال فى بيانها بأن قيام السوق يشبه انتصاب الشخص فى أحسن هيئة، فاستعمل القيام فى الانتصاب الذى هو ضد الجلوس، كما استعملت الإقامة فى إنفاق السوق. وهذا القدر من المجاز شائع، ولكثرة شيوعه ساوى الحقيقة، ولذلك صح بناء المجاز الثانى – الذى هو الاستعارة التبعية – عليه فيقال: شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها بجعل الشئ قائماً فى أن كلا منهما يجعل متعلقه مرغوباً فيه، متوجهاً إليه. ثم استعيرت الإقامة للمواظبة على الصلوات والعناية بها.

وكأن العدول إلى التعبير بالإقامة إنما يوحى بالثناء على هذا الفريق الذى نال خطا من هدى الآيات ورحمتها، لما فيها من إشارة إلى مدى محافظتهم على الصلاة، وعنايتهم بها، ومداومتهم عليها، وكيف أنهم يتشمرون لأدائها بلا فتور عنها ولا توان.

ويلمح التعبير إلى جانب آخر، وهم أنهم بإقامتهم للصلاة على هذا النحو، قد رغّبوا فيها غيرهم، حيث إنهم أظهروها – بحرصهم عليها، ومبادرتهم إلى أدائها على أكمل وجه، فى صورة الشئ النفيس، يعرض فى أحسن حال، وأبهى صورة، فيغرى الناظرين بالمسارعة والمنافسة فى تحصيله.

ولأن ذلك أثر من آثار هداية الآيات ورحمتها، عبر بالفعل المضارع، "يقيمون" للإشارة إلى تجدد إقامتهم للصلاة وأن ذلك إنما كان بعد أن جاءهم هدى القرآن وادركتهم رحمته.

وقوله: وهم بالآخرة هم يوقنون".

يقول ابن منظور: اليقين: العلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن.

وفى التنزيل العزيز. "وإنه لحق اليقين" أضاف الحق إلى اليقين، وليس هو من إضافة الشئ إلى نفسه، لأن الحق غير اليقين، إنما هو خالصه وأصحه، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل.

والتعبير مسوق لمدح المحسنين من جهة اعتقادهم فى حياة ثانية بعد هذه الحياة.

والمحسنون لهم أوصاف أخرى كثيرة، وإنما خص هذه من بين أوصافهم، لأن اليقين بالآخرة. بما فيها من ثواب وعقاب، وجنة ونار، وحشر وميزان، إنما يوجب الحذر والمراقبة، والفكرة فيما ينجى النفس من أن تكون فى زمرة الذين يساقون إلى النار، ويجعلها من المنعمين بالثواب.

ولاختيار "اليقين" للتعبير عن ذلك بدل الإيمان أو التصديق مثلاً – خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن وإعجازه. لأن اليقين أخص من الإيمان والعلم، لأنه – أى اليقين – علم نظر واستدلال وفكر وروية، ولا يكون ذلك إلا فى أمر ذى نظر. ولذلك يقول الحق سبحانه:﴿ لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴾[1].

ولما كانت الآخرة بما فيها من أحداث عظيمة من الأمور الغيبية، كان الإيمان بها جديراً بمادة "الإيقان".

(١) التكاثر : ٥.

وطريقة بناء الكلام هنا وأسلوب نظمه ليؤكدان على أن يقينهم ثابت وراسخ، حيث جئ بالمسند إليه مقدماً على المسند الفعلى، ولم يكن مراد به الحصر، وإنما القصد إلى التحقيق على السامع بأن ذلك من صفاتهم التى تستوجب مدحهم، كما لا يخفى ما فيه من التعريض بـ "النضر" ومن تبعه مما سيأتى الحديث عنهم، وذلك يؤيده – أيضاً – تقديم لفظ "الآخرة".

لأنك إذا عمدت – كما يقول عبد القاهر – إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه، فقلت: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت" و "أنت فعلت": اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل، إلا أن المعنى فى هذا القصد ينقسم قسمين:

أحدهما: جلى لا يشكل: وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر، أو دون كل أحد.

ومثال ذلك أن تقول: "أنا كتبت فى معنى فلان، وأنا شفعت فى بابه" تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أن غيرك قد كتب فيه، كما كتبت ومن البين فى ذلك قولهم فى المثل "أتعلمنى بضب أنا حرشته".

والقسم الثانى: أن لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولاً– ومن قبل أن تذكر الفعل – فى نفسه لكى تباعده بذلك من الشبه وتمنعه من الإنكار، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد. ومثاله قولك: "هو يعطى الجزيل، "وهو يحب الثناء"، ولا أن تعرض بإنسان وتحطه عنه، وتجعله لا يعطى كما

يعطى، ولا يرغب كما يرغب – ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه، وأن تمكن ذلك فى نفسه.

ثم أورد على ذلك مثالاً من الشعر العربى الفصيح، وهو قول الشاعر:

هم يفرشون اللبد كل طمرة ∴ وأجرد سباح يبذ المغالبا[1]

لم يرد أن يدعى لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها، وينص عليهم فيها، حتى كأنه يعرض بقوم آخرين، فينفى أن يكونوا أصحابها. هذا محال. وإنما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل، وأنهم يقتعدون الجياد منها، وأن ذلك دأبهم، من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم، إلا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم، ويعلم بديا قصده إليهم بما فى نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هى لهم، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط"[2].

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

كلام مستأنف استئنافاً بيانيا، لأن السامع إذا سمع ما تقدم من صفات الثناء عليهم، ترقب فائدة تلك الأوصاف، فكأنه قيل: أولئك على هدى...

---

(١) "اللبلد": الصوف أو الشعر المتلبد، وقد جرت العادة بوضع قطعة منه على ظهر الفرس تحت السرج للينه، و"الطمرة" أنثى الطمر وهو الفرس الجواد، أو المجتمع المتداخل الخلق كأنه متهئ للوثب دائما، " والأجرد" الفرس القصير الشعر، و "السباح" الذى يشبه غدوة السباحة، و"يبذ" يغلب.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٨ وما بعدها.

وقد صدر الكلام هنا باسم الإشارة، - أولئك- "وأصلها أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة[1] إلا أن العرب قد يخرجون بها عن الأصل فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر فى ذهن المتكلم والسامع، فإن السامع إذا وعى تلك الصفات، وكانت مهمة أو غريبة فى خيراً أو ضده صار الموصوف بها كالمشاهد، فالمتكلم يبنى على ذلك فيشير إليه كالحاضر المشاهد، ...

ثم إنهم قد يتبعون اسم الإشارة الوارد بعد تلك الأوصاف بأحكام فيدل ذلك على أن منشأ تلك الأحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الإشارة، لأنها لما كانت هى طريق الاستحضار كانت الإشارة لأهل تلك الصفات قائمة مقام الذوات المشار إليها. فكما أن الأحكام الواردة بعد أسماء الذوات تفيد أنها ثابتة للمسميات، فكذلك الأحكام الواردة بعد ما هو للصفات تفيد أنها ثبتت للصفات، فقوله: "أولئك على هدى من ربهم" بمنزلة أن يقول: أن تلك الصفات هى سبب تمكنهم من هدى ربهم"[2].

واسم الإشارة هنا واقع موقع ضمير "المحسنين" وهو أبلغ مما لو بنى الكلام على ضميرهم أو على إعادة ذكر اسمهم، لأن الإشارة هنا تتضمن جميع أوصافهم المتقدمة.

يقول الزمخشرى: "وهذا النوع من الاستئناف يجئ تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد. صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أبلغ وأحسن، لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه"[3].

---

(١) راجع النحو الوافى جـ١، ص٣٢١.
(٢) التحرير والتنوير جـ١ ص ٢٤١.
(٣) الكشاف للزمخشرى جـ١، ص .

وإلى هذا ذهب السعد أيضاً، وجعل الاستئناف بذكر اسم الإشارة أبلغ من الاستئناف الذى يكون بإعادة ذكر المستأنف عنه فقال: ومنه: ما يتأتى بإعادة اسم ما استأنف عنه أى: أوقع عنه الاستيناف – بحذف المفعول بلا واسطة والأصل: استؤنف عنه الحديث – نحو: أحسنت أنت إلى زيد. زيد حقيق بالإحسان.

ومنه ما يبنى على صفته. أى على صفة ما استؤنف عنه دون اسمه، يعنى يكون المسند إليه فى الجملة الاستئنافية من صفات من قصد استئناف الحديث عنه، أعنى صفة تصلح لترتيب الحديث عليه، ... نحو: أحسنت إلى زيد. صديقك القديم أهل لذلك. والسؤال المقدر فيها: لماذا أحسن إليه؟ أو: هل هو حقيق بالإحسان القديم؟ وهذا أى الاستئناف المبنى على صفة ما استؤنف عنه – أبلغ وأحسن، لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم كقدم الصداقة فى المثال المذكور، لما سبق إلى الفهم من ترتب الحكم على الوصف، أن الوصف علة له، وأما إذا عقبت المستأنف عنه فى الكلام السابق بصفات ثم ذكرته فى الاستئناف بلفظ اسم الإشارة كقولك: قد أحسنت إلى زيد الكريم الفاضل ذلك حقيق بالإحسان. فالأظهر أنه من قبيل الثانى. وعليه قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

فكان المعنى: أنهم قد استحقوا أن يكونوا على هدى من ربهم، واستحقوا الفلاح فى الدنيا والآخرة بسبب ما اتصفوا به، وما كانوا عليه.

وفى الإشارة إليهم تنويه بشأنهم، وعلو منزلتهم، وبلوغهم درجة عالية فى الإحسان، جعلهم أهلاً لما هم عليه، كما أن فيها تنويه بشرف تلك الصفات التى كانت سببا فى وصولهم إلى تلك المرتبة.

يقول الزمخشرى: "وفى اسم الإشارة الذى هو "أولئك إيذان بأن ما يرد عقبة، فالمذكرون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التى عددت لهم.

وقد كشف بناء الكلام على الاستعارة التمثيلية التبعية فى قوله: "على هدى" عن مبلغ تأثير هداية الآيات ورحمتها فيهم، حتى إنهم لم يهتدوا بهديها فحسب، بل صاروا متمكنين من الهدى، يركبون مطيته، فكأنهم لشدة هداهم صاروا وكأنهم هم الذين يهدون الهدى ويوجهونه، كما يوجه الراكب مطيته ويسيرها أنى شاء.

وهذا التصوير الذى جسد لك تلك الأمور المعنوية لا يخفى أثره على نفسك.

يقول الزمخشرى: ومعنى الاستعلاء فى قوله: "على هدى" مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشئ وركبه، ونحوه: هو على الحق،وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك فى قولهم: جعل الغواية مركباً. وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى"[1].

وقد ذهب السيد إلى اعتبار الاستعارة هنا تبعية، وانتصر السعد لكونها تمثيله، ودار بينهما خلاف، وهو موجود على طوله فى كتاب المطول[2].

ومعنى كون الهدى من ربهم أى: منحوه من عنده، وأوتوه من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذى اعتضدوا به على أعمال الخير والترقى إلى الأفضل فالأفضل، وفيه تنويه بشأن ذلك الهدى إذ أنه منحة وعطية من الحق - سبحانه وتعالى- كما أنه يعنى أنهم بعين الله وعنايته.

---

(١) الكاشف جـ١، ص٥٣. ر

(٢) بحاشية السيد ص ٣٩٢ وما بعدها.

وتنكيره لإفادة التعظيم، ليفيد ضرباً مبهما لا يبلغ تنهـــه، ولا يقادر قدره – على حد قول الزمخشرى – كأنه قيل: على أى هدى.

وكل ذلك إنما يرجع إلى تعظيم المتصفين بـــه، والمتمكنـــين منه، والثناء عليهم.

قوله تعالى: "وأولئك هم المفلحون" يقول ابن منظور : الفلح والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير، وإنما قيـــل لأهـــل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد، وفلاح الدهر: بقـــاؤه. والفـــلاح: الفوز بما يغتبط به،وفيه صلاح الحال. وأفلح الرجل: ظفر[1].

فكأن الفلاح: الفوز وصلاح الحال فى الدنيا والآخـــرة، إلا أن المراد به هنا: الفوز بالنعيم الأبدى فى الآخرة.

والإشارة هنا – مرجعها عين مرجع الأولى، وإنمـــا كـــررت للتنويه بشأن فلاحهم، كما أفادت الإشارة الأولى التنويـــه بهـــداهم.، وأن فلاحهم لا يقل شأنا عن تمكنهم من الهدى. لذلك لم يذكره القرآن تبعاً للهدى وإنما خصه بإشارة، وجملة.

كما أن فى تكرارها إشارة إلى أنهم إنما اشتهروا بـــالأثرتين، وعرفوا بهما، فتكون كل واحدة منهما فى تميزهم عن سائر الخلـــق بالمثابة، التى لو انفردت كفت مميزة لهم على حيالها.

ولما كانت الهداية حاصلة لهم فى الدنيا، والفلاح حاصل لهم فى الآخرة، إضافة إلى اختلاف مفهومهما، كان بين الجملتين كمـــال انقطاع.

ومن جهة أخرى لو نظرت إلى تسبب مفهوم إحداهما عـــن مفهوم الأخرى، بمعنى أن حصول الفلاح فى الآخرة سببه تمكنهم من الهدى فى الدنيا، وكانت الرغبة فى الفوز بالفلاح فى الآخـــرة دافعـــاً

(١) راجع اللسان مادة "فلح".

للتمسك بالهدى، إضافة إلى كونهما مقصودتين بالوصف، وجدت أن بينهما كمال اتصال.

وهذا التعارض بين الكمالين يجعلهما متوسطتين بين الكمالين، وتلك حالة تقضى الوصل بينهما، وذلك لأنه يجعل كالأصل عند تعارض مقتضيات الوصل والفصل – فى نكر الجمل بعضها بعد بعض.

وأما قول الحق – فى شأن من اتبع هواه، وكذب بآيات الله، وانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1]. فهو على خلاف الآية التى بين أيدينا، لأن قوله تعالى: "أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون" خبران متفقان فى المعنى فيفصل بينهما. "لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شئ واحد، فكانت الثانية مقررة لما فى الأولى"[2].

و"هم" فى قوله: "هم المفلحون" ضمير فصل، وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفه، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره"[3].

ولما كان التعريف فى قوله: "المفلحون" للجنس، لأنه لا معهود هنا فى الكلام السابق. بحسب ظاهر الحال، أفاد الاهتمام بالخبر. ولم يفد أنه مقصور على المسند إليه. إذا أن تعريف المسند لا يفيد القصر والاختصاص فى كل أحواله.

---

(١) الأعراف: ١٧٩.
(٢) الكشاف جـ١ ص٥٤.
(٣) الكاشف جـ١، ص٥٤.

ويوضح الإمام عبد القاهر هذه المسألة فيقول: "وأعلم أنك تجد "الألف واللام" فى الخبر على معنى الجنس، ثم ترى له فى ذلك وجوهاً:

أحدها: أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة، وذلك قولك: "زيد هو الجواد" و "عمرو هو الشجاع" تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام فى صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره، لقصوره عن أن يبلغ الكمال.

والوجه الثانى: أن تقصر جنس المعنى الذى تفيده بالخبر على المخبر عنه، لا على معنى المبالغة وترك الاعتداد بوجوده فى غير المخبر عنه، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشئ يخصصه ويجعله فى حكم نوع برأسه، وذلك نحو أن يقيد بالحال والوقت كقولك: "هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيراً".

والوجه الثالث: أن لا يقصد قصر المعنى فى جنسه على المذكور، لا كما كان فى "زيد هو الشجاع" تريد أن لا تعتد بشجاعة غيره، ولا كما ترى فى قولك: هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيرا، ولكن على وجه ثالث، وهو الذى عليه قول الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل ∴ رأيت بكاءك الحسن الجميلا

لم ترد أن ما عدا البكاء عليه قليس بحسن ولا جميل، ولم تقيد الحسن بشئ فيتصور أن يقصر على البكاء، ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ما حسنه الحسن الظاهر، الذى لاينكره أحد، ولايشك فيه شاك.

ثم يذكر معنى آخر غير ما سبق فيقول: وأعلم أن للخبر المعرف "بالألف واللام" معنى غير ما ذكرت لك، وله مسلك ثم دقيق ولمحه كالخلس، يكون المتأمل عنده كما يقال: يعرف وينكر، وذلك

قولك: "هو البطل المحامى" و"هو المتقى المرتجى" وأنت لا تقصد شيئا مما تقدم.. ولكنك تريد أن تقول لصاحبك: هل سمعت بالبطل المحامى؟ وهل حصلت معنى هذه الصفة؟ وكيف ينبغى أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه؟ فإن كنت قتلته علما وتصورته حق تصوره، فعليك صاحبك واشدد به يدك، فهو ضالتك، وعنده بغيتك"(١).

وكأن عبد القاهر- رحمه الله - يلقى لنا بكلامه الدقيق وتحليله العميق- ضوءاً كاشفاً على معنى التعريف فى قوله تعالى:"المفلحون" وأنه لم يكن لقصر تلك الصفة عليهم، بحيث لا تتعداهم إلى غيرهم، إذ أن المتقون مفلحون أيضا، كما نص عليه فى صدر سورة البقرة، وليس على سبيل أنهم الكاملون فى هذه الصفة،وأن ما عداهم لا يعتد به،ولا ينوه بشأنه،وذلك لأن الفلاح ليس مراتب أو درجات كالشجاعة أو الكرم حتى يتصور فيه الكمال والنقص ،وليس على معنى أن يظهروا فى صورة المفلحين التى لا ينكرها أحد ولا يشك فيها.

ولكن على معنى آخر، له مكان من الفخامة والنبل، وهو من سحر البيان الذى تقصر العبارة عن تأديته حقه، وهو أن تضع فى نفسك صورة المفلحين الذين سعدوا بالنجاة والبقاء فى خير ونعيم. وفازوا بما يصلح حالهم،ويدخل عليها السرور والبهجة، وزاد من تلك السعادة، وضاعف من تلك البهجة هو أنهم أصبحوا فى مأمن من زوالها، فهى باقية معهم، وراضية عنهم.

وأنهم ما وصلوا إلى تلك المرتبة إلا بسلوكهم سبيل المحسنين الذين راقبوا الله، وعبدوه كأنهم يرونه وينظرون إليه، فحافظو على صلاتهم، وأدوها كاملة دون تأخير أو نقص أو فتور، وأخرجوا صدقة أموالهم عن طيب نفس من أطيب ما يكسبون، ثم إنهم وضعوا الحياة

(١) راجع دلائل الإعجاز ص ١٧٩ وما بعدها ت: محمود شاكر.

الآخرة نصب أعينهم، وأيقنوا بها، فكان ذلك دافعا لهم على الطاعة والمراقبة والمحاسبة.

إذا حصلت هذا كله، وتصورته حق تصوره، وحصلت معنى الفلاح، وكيف ينبغى أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه، واشتاقت نفسك لمعرفتهم، فهم أولئك الذين اهتدوا بهدى الآيات وتمسكوا به، لا يعدون تلك الحقيقة.

ولا يخفى ما فيه من دافع لكل عاقل لأن يدرك ركبهم، فيسعد مثلهم.

فانظر كيف تظاهر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين "أولئك"، للتنبيه على اختصاص المحسنين بنيل مالا يناله أحد، فتبصر مراتبهم، وترغب فى طلب ما طلبوا، وتنشط لتقديم ما قدموا.

وهو فى ذات الوقت تمهيد للحديث عن فئة أخرى، تركت طريق الجسد إلى اللهو، وعدلت عن سبيل الإحسان إلى الإساءة، لأن السامع يجزم بعدها بأن كل الناس سيرغبون فيما رغب فيه المحسنون، ويطلبون ما طلبوا، حتى يكونوا أهلاً للفوز بالفلاح.

المبحث الثانى
بيان موقف الناس من آيات الكتاب الحكيم

فيأتى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ (١).

جاء قوله تعالى : (ومن الناس) - على خلاف الظن- والحسبان، معطوفاً على ما قبله بحسب المعنى، كأنه قال: من الناس هاد ومهدى، ومنهم ضال مضل، أو من باب عطف قصة على قصة، أو على أنه حال من فاعل الإشارة فى قوله: "تلك"، أى أشير إلى آيات الكتاب حال كونها هدى ورحمة للمحسنين والحال أن من الناس من يشترى لهو الحديث.

وقوله: "ومن الناس" خبر مقدم وأصل الكلام: من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ... من الناس، وقد يظن فى بادئ الأمر أن الأخبار به قليل الجدوى، أو عديم الفائدة، من جهة أن المبتدأ المؤخر يدل على ذات مثله، لأن شراء لهو الحديث بهدف الإضلال عن سبيل الله لا يكون إلا من الناس، فلما يقال: أن من يشترى اللهو من الناس، لا تكون له فائدة. ولو قيل مثلاً من يشترى لهو الحديث فلان، أو فلان يشترى لهو الحديث لأفاد.

---

(١) لقمان: ٦: ٩.

ولكن الأمر على خلاف ذلك. إذ أن القصد منه، إخفاء مدلول الخبر عنه، وعدم نسبته إلى القائم به صراحة وعلى وجه التحديد؛ وذلك من أبواب الأدب العالى فى الحديث – وهو إخفاء مدلول الخبر إذا كان الحديث مما يكسب ذما أو نقصاناً.

ثم إنه نبه بتقديمه على عجيب ما سيذكر، وشوق لمعرفة ما يتم الإخبار به، ولو أخر لما كان كذلك، لحصول العلم بأن ما ذكره المتكلم لا يقع إلا من إنسان.

كما لا يخفى ما يؤذن به موقعه، ووقعه من التعجب وإثارة الدهشة من حالهم وسوء صنيعهم، لأن الإنسان إنما يشترى ما يفيده وينفعه، أما أن يدفع الإنسان ماله ثمناً لما لا ينفع، فضلاً عن أنه يضر ويشقى! فهذا مما لا يقبله عقل. ومما يزيد من التعجب هنا – أنه جاء بعد وصف الآيات بالحكمة والهداية، فكان ينبغى أن يكون فى سماعها غنى عن سماع أى حديث آخر. ثم إن هذه الآيات قد ظهر أثرها هداية ورحمة للناس، فصاروا بها محسنين مما كان سبباً فى فلاحهم فكان فى هذا داع لهم لألا يشتروا غيرها.

فإذا وجد بعد ذلك من يترك تلك الآيات ويشترى لهو الحديث كان تنبيه القرآن – مقدماً – على أنه من الناس قبل أن يسوق خبره – تشويقاً إلى استعلام المبتدأ، وأنه ستساق فى شأنهم قصة عجيبة مذمومة، وحالة شنيعة، يأبى أدب القرآن أن يصرح بموضوعها.

أضف إلى ذلك أن الأسلوب يوحى بتحقيرهم،واذدرائهم، وأنهم لم يكونوا جديرين بأن يكونوا من الناس، بل كان حقهم أن يكونوا من الأنعام، لأنهم والحال كذلك مثلها بل أضل،لأن لهم عقلاً ولا عقل لها.

كما أن مجئ من التبعيضية جارة له: توحى بإهمالهم وأنهم بعض الناس، وهذا أدعى لتسفيههم، وعدم إتباعهم، لأنهم قلة، ثم إنها توحى من جانب آخر بان من اتبع هدى الآيات هم جل الناس.

ثم أنك لو نظرت إلى الكلام من جهة أخرى،لوجدت أنه خاطب الناس هنا خطاب من ليس لديه شك فى أن أحداً يترك الآيات وينصرف عنها إلى غيرها بعدما تقدم، وأن انصراف الناس إلى غيرها بات بمنزلة الأمر تنكره النفس وتأباه، ولذلك قدم قوله: "ومن الناس".

ويشهد لهذا "أنا إذا تأملنا، وجدنا هذا الضرب من الكلام يجئ فيما سبق فيه إنكار من منكر، نحو أن يقول الرجل: "ليس لى علم بالذى تقول"، فتقول له: "أنت تعلم أن الأمر على ما أقول، ولكنك تميل إلى خصمى، وكقول الناس: "هو يعلم ذاك وإن أنكر، وهو يعلم الكذب فيما يقول وأن حلف عليه.

أو يجئ فيما اعترض فيه شك، نحو أن يقول الرجل: "كأنك لا تعلم ما صنع فلان، ولم يبلغك" فيقول: "أنا أعلم ولكنى أداريه".

ويذيدك بيانا أنه إذا كان الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال لم يكد يجئ على هذا الوجه، ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم، فإذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجل من عادته أن يخرج فى كل غداة قلت: "قد خرج" ولم تحتج إلى أن تقول: "هو قد خرج"، ذاك لأنه ليس بشىء يشك فيه السامع، فتحتاج أن تحققه، وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه.

وكذلك إذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضى إلى موضع، ولم يكن شك وتردد أنه يركب أولا يركب، كان خبرك فيه أن تقول: "قد ركب" ولا تقول:"هو قد ركب"،فإن جئت بمثل هذا فى صلة كلام، ووضعته بعد واو الحال، حسن حينئذ، وذلك قولك: جئته وهو قد ركب، وذاك أن الحكم يتغير إذا صارت الجملة فى مثل هذا الموضع،ويصير الأمر بمعرض الشك،وذاك أنه إنما يقول هذا من قد ظن أنه يصادفه فى منزله،وأنه يصل إليه من قبل أن يركب"[1].

---

(١) دلائل الإعجاز.

وقد قيل: بأنها نزلت فى النضرين الحرث، وكان يتجر إلى فارس، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن.

وقيل: كان يشترى المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنية، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه"[1].

"واللهو" يطلق فى اللغة على: كل ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما، ولهوت بالشئ وتلهيت به: إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره. واللهو: المرأة الملهو بها، وقيل: اللهو: الشرك[2].

فنجد أن معناه بصفة عامة يدور حول: كل ما يشتغل به الإنسان مما ترتاح إليه نفسه ولا يتعب فى الاشتغال به عقله، فلا يطلق إلا على ما فيه استمتاع ولذة، وملائمة للشهوة.

وعلى هذا فلهو الحديث ما كان من الحديث مراداً للهو، أو من اللهو. لأن الإضافة فيه على معنى من التبعيضية. على رأى بعض النحاة، وبعضهم لا يثبت الإضافة على معنى من التبعيضية فيردها إلى معنى اللام.

وعلى هذا يكون الفعل "يشترى" إما من الشراء على ما روى عن النضر: من شراء كتب الأعاجم أو من شراء المغنيات. وإن كان المراد "بلهو الحديث": الغناء،لأنه يلهى به عند ذكر الله عز وجل.

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ٣، ص

(٢) راجع اللسان مادة:" ل هـ و".

وما قاله قتادة، حيث قال فى هذه الآية: أما والله لعله أن لا يكون أنفق مالاً، ويحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل عن حديث الحق، فيكون فيه الشراء مستعاراً للاستحباب، أو الاختيار لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر.

وعلى التفسير الثانى، فليس هناك بدل وأخذ آخر، وإنما المرء بسبب ضلاله وبعده عن الحق يؤثر الكفر على الإيمان، والضلال على الهداية. فالوجه بينهما، أن المشترى للشئ محب له، ومؤثر إياه، وكذلك يختار الشئ عن حب واثيار.

ومعنى: "ليضل عن سبيل الله" أنه يفعل ذلك ليلهى قريشاً عن سماع القرآن، فإن القرآن سبيل موصل إلى الله تعالى، أى: إلى الدين الذى أراده، فلم يكن قصده مجرد اللهو، بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله، وهذا زيادة فى تفظيع عمله"[1].

وذلك لما أضيف السبيل إلى الله عزوجل، أخذ قدره مما أضيف إليه، فلم يكن ما أضل الناس عنه مجرد سبيل، وإنما هو سبيل الله.

أمر آخر يفهم من هذه الإضافة، وهو أن لكل سبيل غاية ونهاية، وكما أن السبيل هنا أخذ قدره مما أضيف إليه، فكذلك يتجلى قدره من غايته ونهايته، وسبيل الله لا شك أنها تصل بسالكها إلى دار السلام، فأى جرم يرتكبه من يصد الناس عن مثل هذا السبيل؟

"ويتخذها": بالرفع معطوفاً على "يشترى"، أى يصرف الناس ويضلهم عن سبيل الله، وفوق ذلك، يتخذها هزوا فالضمير فيها عائد إلى سبيل الله.

وأما قراءة النصب "ويتخذها هزواً" فعلى اعتبار أنها معطوفة على "ليضل" فيكون الهدف من شراء لهو الحديث مقصوداً به اضلال

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٤٣.

الناس عن سبيل الله والاستهزاء بها. وعلى كل فالأمرين من فعله، ومن غرضه. فمآل القراءتين واحد.

والاتخاذ: افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء. و"هزوا": يقال: الهزؤ: السخرية يقال: هزئ به، ومنه، وهزأ يهزأ فيهما هزءاً وهزؤاً، واستهزأ به: سخر[1].

وهذا يعنى أنه يكلف نفسها ضد ما تدعوه إليه فطرته التى فطر عليها،وهو إتباع هدى الآيات للوصول إلى طريق الفلاح،والوفاء بعهده مع الله سبحانه وتعالى،والذى كان قد أخذه على ذرية نبى آدم مصداقاً لقوله سبحانه:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[2].

ولما أنتج له هذا الفعل الشقاء الدائم، بينه بقوله – جامعاً حملاً على معنى "من" بعد أن أفراد حملاً على لفظها، لأن الجمع فى مقام الجزاء أهول، والتعجيب من الواحد أبلغ[3].

"أولئك لهم عذاب مهين". مشيراً إليهم بما يشار به للبعيد، تهكماً بهم، وكأنهم هبطوا بما فعلوا بعيدين عنه رتبه الإنسان.

ووصف العذاب بأنه مهين، فيه للاءمه لجرمهم، وسوء صنيعهم، لأنهم إنما فعلوا من باب الاستعلاء والتكبر والعناد. يؤيده قوله بعد ذلك: "وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستبكراً...." فكأنه بعد

---

(١) راجع اللسان مادة هزأ.
(٢) الأعراف: ١٧٢، ١٧٣.
(٣) نظم الدور فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعى جـ٦، ص٧ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

تلاوة الآيات لا يزداد إلا بغيا وطغيانا، والفعل المضارع فيه يدل على تجدد التلاوة عليه حيناً بعد حين، ومرة بعد مرة، "وهى: تلاوة القرآن تلاوة تبين حروفه، ويتأنى فى أدائها ليكون أدنى إلى فهم المعانى، والقراءة أعم منها، فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة، وهذا يعنى أن الذى يتلوها لا يتلعثم، ولا يتشكك، بل تكون تلاوته سهلة بتيسير الله تعالى[1] ثم إضافتها إلى ضمير الحق سبحانه، فضلا عما لها من هداية ورحمة.

ومع ذلك "ولى مستبكراً". والتكبر والاستكبار: التعظم. وكأنه يطلب شيئا ليس له أهل، لأن الكبر، والكبرياء، والعظمة، والتجبر لا يوصف بها إلى الحق سبحانه وتعالى.

فالزيادة فى الصيغة هنا – إنما تدل على الطلب والافتعال، والتصنع، فهو يستكبر حال كونه غير أهل لذلك، مما يضاعف قبح صورته، وبشاعة هيئته.

لأنه لم يكتف بالأعراض عن السماع، والتولية عند التلاوة فحسب، بل عاند وتكبر.

وكأن الأعراض هنا، ليس إعراض جهل، أو تفريط فى الخير، أو نفور من قبح صوت، وإنما إعراض استكبار. وهذا ينطوى على اعترافهم بما عليه الآيات من شرف وفخامة وروعة، وبما لها من هدى ورحمة، ولكن حال بينهم وبينها، الخوف من أن يفوتهم عزهم الموهوم. ثم تأمل – يرحمك الله– روعة التصوير، وحسن البيان حين تصور الآية تلك الحالة، بحالته وهو لم يسمعها من الأصل، فدل ذلك على أنه لم يزل على حالة الكبر، ولم تؤثر فيه الآيات التى لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً، من خشية الله، وقد قال الحق

(١) موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ جـ٤ ص ١١٧٦، وما بعدها. ط المملكة العربية السعودية.

فـــى ذلـــك ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وفيها فضلاً عن تشبيه حالة مع السماع بحالـــة مـــع عـــدم السماع كناية عن قسوة قلبه، وإيغاله فى الكبر والعناد.

وهذا اللون من التشبيه الذى ياتى فيه المشبه والمشبه بـــه حالان لشئ واحد، ويكون فيه خبر كأن جملة أو مشتقا كثير، ومنـــه على سبيل المثال أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[2] فالحق سبحانه يشبه حـــالهم يوم القيامة وهم يخرجون من الأحداث مسرعين بحالهم التى كـــانوا عليها فى الدنيا وهم يسرعون إلى الأنصاب.

وقوله تعـــالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾[3].

قال الزمخشرى: كأنك عالم بها، وحقيقته: كأنـــك بليـــغ فـــى السؤال عنها"[4]. والمعنى "أى: أنت وهم يكثرون ســـؤالك عنهـــا – تشبه إنساناً عالماً بها، معتن بأمرها، يسألونه عنها"[5].

---

(١) الحشر : ٢١.
(٢) المعارج: ٤٣.
(٣) الأعراف ١٧٨
(٤) الكشاف جـــ٢، ص١٣٤.
(٥) أدوات التشبيه ص ١٩٨.

فالآيات السابقة جاء فيها خبر كأن جملة وليس جامدا، ومع ذلك حملها العلماء والمفسرون على التشبيه، وأعان على ذلك أن المشبه والمشبه به حالان مختلفان لشئ واحد،وهذا الوجه هو المشهور عند جمهور العلماء، من أن "كأن للتشبيه مطلقاً".

قال به ابن جنى[1]وابن هشام[2]وأما الكوفيون فذهبوا إلى أنها لا تكون للتشبيه، إلا إذا كان خبرها اسماً جامداً، مثل كأن زيداً أسد" أما إذا كان خبرها جملة، أو شبهها، أو مشتقاً، فهى للظن والحسبان، مثل قولك: "كأن زيداً يقوم أو قائم أو عندك"[3].

وقد حكى سعد الدين رأى الزجاج وهو تابع فيه للكوفيين، وعلل ذلك بأن الخبر "فى المعنى هو المشبه به، والشئ لا يشبه بنفسه" ثم ذكر رأى الجمهور، ورأى أن الحق أنها تأتى للشك سواء كان الخبر مشتقاً أو جامداً، وذلك عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه نحو "كأن زيداً أخوك"، وكأنه قد فعل كنا، قال: وهذا كثير فى كلام المولدين"[4].

وحكاه أيضاً العلامة جلال الدين السيوطى عند تحقيقه فى قول الحسن البصرى: "كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل" فيقول: فأما معنى "كأن" فاختلف فيه على قولين:

أحدهما: للكوفيين: زعموا أنها حرف تقريب وليس فيها معنى التشبيه، إذا المعنى على التقريب: زوال الدنيا وتقريب وجود الآخرة، وجعلوا من ذلك قولهم: كأنك بالشتاء مقبل" وكأنك بالفرج آت.

---

(١) الخصائص جـ١، ص ٣١٧.
(٢) معنى اللبيب لابن هشام جـ١ ، ص١٩٢.
(٣) راجع معنى اللبيب جـ١ ص ١٩٢ وعروس الأفراح جـ٣ ص٣٩٢.
(٤) راجع المطول ص ٣٢٨.

والثانى للبصريين: زعموا أنها حرف تشبيه مثلها فى قولك كأن زيداً أسد، ولم يثبتوا مجيئها للتقريب أصلاً.

والمعنى: كأن حالك فى الدنيا حال من لم يكن فيها، وكان حالك فى الآخرة حال من لم يزل بها، فالمشبه والمشبه به حالتان، لا الشخص والفعل الذى هو جنس.

وإيضاح هذا، أن الدنيا لما كانت إلى اضمحلال وزوال، كان وجود الشخص فيها كلا وجود، وأن الآخرة لما كانت إلى بقاء ودوام، كان الشخص كأنه لم يزل فيها، ثم يتكر رأيه قائلاً.

ولا شك أن المعنى المشهور "لكأن" هو التشبيه، فمهما أمكن الحمل عليه لا ينبغى العدول عنه"[1] وعلى هذا، فالكلام فى الآية على التشبيه أبلغ إذ أنه يقتضى من السامع أو القارئ استحضار طرفى الصورة فى ذهنه، وأمام عينيه.

وكرر التشبيه مع اختلاف الكيفية، أو اختلاف الحال المشبه بها فى أن عدم السمع مرة مع تمكن آلته، ومرة مع انعدام قوة آلته، فشبه ثانياً بمن فى أذنيه وقر، وهو أخص من معنى: "كأن لم يسمعها".

والوقر فى قوله: "كأن فى أذنيه وقراً" هو الثقل فى الأذن، وقيل: هو أن يذهب السمع كله. وفى اللسان وقرت أذنه – بالكسر – توقر وقراً أى صمت ووقرت وقراً[2].

"وهو مستعار لعدم فهم المسموعات، جعل عدم الفهم بمنزلة الصمم، لذا لم يذكر "للوقر" متعلق يدل على الممنوع به. ولظهور أنه المنع من السماع.

---

(١) الأشباه والنظائر فى النمو جـ٤ ص ٧٩ للعلامة جلال الدين السيوطى ط١ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤ دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
(٢) راجع اللسان مادة (وقر).

وقد فصل بين الصورتين أى بين قوله: "كان لم يسمعها كأن فى آذنيه وقراً" لأنها – أى الثانية- جاءت مؤكدة للأولى ومبينة لها، "ولأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر، هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، إلا أن الثانى أبلغ، وآكد فى الذى أريد.

وذلك أن المعنى فى التشبيهين جميعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معه، ويكون لها تأثير فيه،وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحالة إذا لم تتل.

ولا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقر، أبلغ وآكد فى جعله كذلك، من حيث كان من لا يصح منه السمع وإن أراد ذلك، أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة، من الذى يصح منه السمع إلا انه لا يسمع إما اتفاقاً، وإما قصداً إلى أن لا يسمع"[1]. بسبب كبره وعناده.

"ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل نخوته وكبرد وعظمته، وكان استمرار الألم أعظم كاسر لذوى الشمم، وكان من طبع الإنسان الاهتزاز لوعد الإحسان كائنا من كان نوع اهتزاز، قال: "فبشره" فلما كان جديراً بأن يقبل – لا يولى لظنه البشرى- على حقيقتها، لأن من يعلم أنه أهل للعذاب بأفعال الصعاب، لا يزال يتوالى عليه النعم مرة بعد مرة حتى يظن أو يكاد يقطع بأن المعاصى سبب لذلك، وأنه – لما له عند الله من عظيم المنزلة- لا يكره منه عمل من الأعمال، قرعه بقوله: "بعذاب" أى عقاب مستمر "أليم"[2].

"فبشره" معناها: أنذره. استعيرت البشارة التى هى الإخبار بما يظهر سرور المختبر به، للإنذار الذى هو ضده، بإدخاله فى

(١) دلائل الإعجاز ص٢٢٩.
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٨.

جنسها على سبيل التهكم[1] ففيها استعارة تهكمية. كقول عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا ∴ فأعجلنا القرى أن تشتيتمونا
قريناكم فجعلنا قراكم ∴ قبيل الصبح مرداة طحونا[2]

وعدها الزمخشرى من باب العكس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به وتألمه وإغمامه[3].

وقيل: "بأنه جعل فى استماع الإنذار كمن يستمع التبشير لعدم مبالاته به، فالاستعارة لجامع المشابهة فى عدم الخوف منهما، وأنه فى الجد من اكتساب العذاب الأليم كالراغب فيه، فإنذارهم به شبيه بالإخبار بمرغوب، فيكون كالتبشير"[4].

وتلاحظ هنا أن تذييل الحديث عمن يشترى لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله، ويتخذها هزواً، جاء ملائماً لما كان عليه حاله مع آيات الكتاب الحكيم، من جهة أنها كانت تنبئ فى جملتها عن الاستخفاف،والاستهزاء بها. فكان فى تذييل الحديث عنهم بهذه الاستعارة، إشارة إلى أنهم هم الجديرون بأن يسخر منهم الساخرون، ويضحك عليهم الضاحكون، وأن يقابل استهزائهم باستهزاء مثله، وعلى حد قولهم: الجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[5].

---

(١) المطول ص٣٦٥.
(٢) البيتان من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى.
(٣) الكشاف للزمخشرى جـ١ ص١١٠.
(٤) الأطول للعصام جـ٢ ص ٢٦١ ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان.
(٥) لقمان ٨، ٩.

لما كان من عادته – سبحانه وتعالى – أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار، إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف"[1] ذكر – هنا – ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بعد ذكر عقاب من يشترى لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله.

إضافة إلى أن معرفة ما لأحد الفريقين، باعثة على السؤال عما للفريق الآخر، فكان قوله تعالى: "إن الذين آمنوا.... مستأنفاً، لأنه كالجواب عن سؤال سائل عما أعده الله للفريق الثانى، الذى آمن وعمل صالحاً.

و"الصالحات": جمع صالحة، وهى الفعلة الحسنة، فأصلها صفة جرت مجرى الأسماء، لأنهم يقولون: صالحة،وصالحات، ولا يقدرون لها موصوفاً. أو هى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة.

واللام فيه:للجنس،ويراد به استغراق الصالحات،إلا أن الاستغراق – هنا – استغراق عرفى يحدد مقداره بالتكليف والاستطاعة.

يقول صاحب المفتاح: "الاستغراق نوعان: عرفى وغير عرفى. فالعرفى، نحو قولنا: جمع الأمير الصاغة، أى جمع جمع صاغة بلده، أو أطراف مملكته فحسب، لا صاغة الدنيا

وغير العرفى نحو قولنا:الله غفار الذنوب،أى:كلها... واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع، ويبين ذلك بأن ليس يصدق: "لا رجل فى الدار" فى نفس الجنس، إذا كان فيها رجل أو رجلان، ويصدق لا رجال فى الدار. ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه – سبحانه

(١) الكشاف جـ١ ص ١٠٩.

وتعالى عن زكريا عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾[1] دون "وهن العظام" حيث توصل باختصار اللفظ إلى الإطناب فى معناه"[2].

وهذا الكلام أخذه صاحب المفتاح من الزمخشرى،حيث قال: "فإن قلت: أى فرق بين لام الجنس داخله على المفرد، وبينها داخله على المجموع؟، قلت إذا دخلت على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه،..... فإن قلت فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة فى الدين على حسب حال المؤمن فى مواجب التكليف"[3].

"ولعل سائلاً يسال عن وجه إتيان العرب بالجموع بعد "ال" الاستغراقية إذا كان المفرد مغنيا غناءها. فأقول: إن أل المعرفة تأتى للعهد، وتأتى للجنس مراداً به الماهيه، وللجنس مراداً به جميع أفراده التى لا قرار له فى غيرها، فإذا أرادوا منها الاستغراق نظروا فإن وجدوا قرنية الاستغراق ظاهرة من لفظ، أو سياق، نحو ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[4] اقتنعوا بصيغة المفرد لأنه الأصل الأخف..

وإن رأوا قرينة الاستغراق خفية، أو مفقودة عدلوا إلى صيغة الجمع، لدلالة الصيغة على عدة أفراد لا على فرد واحد، ولما كان تعريف العهد لا يتوجه إلى عدد من الأفراد غالباً تعين تعريفها للاستغراق نحو: "والله يحب المحسنين" لئلا يتوهم أن الحديث عن

(١) مريم :٤.
(٢) المفتاح ص ٣١٨.
(٣) الكشاف جـ١، ص١١٠، ١١١.
(٤) العصر : ٢، ٣.

محسن خاص، فيصير الجمع فى هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق[1].

"والجنات" جمع جنة. يقال: جن الشئ يجنه جنا: ستره، وكل شئ ستر عنك فقد جن عنك وجنه الليل، وأجنه: ستره.، والجنة: البستان، وجمعه: جنات. والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل. ويقصد بها هنا: دار النعيم فى الدار الآخرة، سميت بذلك لتكاثف أشجارها، وتظليلها بالتفاف أغصانها، والمادة – كما ترى – تدور حول معانى الستر والخفاء.

وجنة على وزن "فعله" وهى المرة الواحدة، من مصدر جنه جنا إذا ستره، فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها. والبستان إذا كان كذلك فهو من وسائل التنعيم والترفه عند البشر.

وفى جمعها، وتنكيرها إشارة إلى أن الجنة ليست واحدة، وإنما تشتمل على جنات كثيرة،وهى مرتبة حسب استحقاق العاملين، لكل طائفة جنات من تلك الجنات. فكان التنكير والجمع، يفيدان الكثرة والتعظيم.

وأما إضافتها للنعيم. فذلك باعتبار اشتمال الجنات عليه، كما يقال: كتب البلاغة. وهذا يعنى: أنه لا شئ فيها ما ينغص عليهم حياتهم، ويعكر عليهم صفوهم، وإنما فيها النعيم ولا شئ سواه.

والنعيم والنعمى، والنعماء، والنعمة، كلها: الخفض، والدعة. والمادة تدور حول معانى: النعومة،والليونة، والترفه، والمسرة، والفرح، وحسن العيشة.

يقول الألوسى موضحا سر إضافة الجنات إلى النعيم: "وفى إضافة الجنات إلى النعيم، إشارة إلى أن لهم نعيمها بطريق برهانى،

(١) التحرير والتنوير جـ١، ص٣٥٣.

فهو أبلغ من: "لهم نعيم الجنات"، إذ لا يستدعى ذلك أن تكون نفس الجنات ملكا لهم، فقد يتنعم بالشئ غير مالكه.

وقيل: إنه لما كان النعيم أصلاً فيها، ميزت به، فقيل: "جنات النعيم" فيفيد كثرته، وشهرته"[1].

وتقديم الجار والمجرور "لهم" على "جنات النعيم" مفيد للقصر والاختصاص.

كأنه قال: لهم دون غيرهم جنات النعيم، وكأن هذا الفريق قد خصصت له تلك الدرجة فى الجنات.

ولما كان من تمام النعيم أن لا يفارق الإنسان، وألا يفارقه الإنسان. بين الحق أن نعم الآخرة باقية لا محالة بقوله: "خالدين فيها" احتراساً من توهم انقطاع ذلك النعيم بما تعودوا من انقطاع اللذات فى الدنيا، إذ أنها جميعها معرضة للزوال، إما بموت المنعم عليه، أو بذهاب النعمة.

فالمعنى: لهم جنات النعيم حالة كونهم خالدين فيها. والتعبير هنا باسم الفاعل "خالدين" فيه إشارة إلى دوامه، واستمراره، وان الله قد منحهم حياة لا يعقبها فناء.

ولكن إذا كان هذا الخلود ممنوح لهم من الله – سبحانه – ولا يكون إلا منه – فلما ذا لم يقل: "مخلدين" على اعتبار أنه وقع عليهم لا منهم؟

أقول: التعبير باسم الفاعل هنا – بدل اسم المفعول – يوحى بأنهم هم الذين صنعوا الخلد لأنفسهم، بما قدموا من إيمان وعمل صالح، فاستحقوا أن يخلدهم الله فى جنات النعيم.، وهو بذلك يدفع –من طريق خفى – كل عاقل إلى الجد، والاجتهاد فى العبادة، والطاعة حتى يستطيع أن يخلد نفسه بما يقدم لها من عمل صالح.

---

(١) روح المعانى مـ١١، جـ٢١ ص ٧٩.

وينأى بالإنسان عن التواكل والتراخى، معتمداً على الله أن يخلد دون أن يقدم لنفسه ما ترقى به إلى ذلك.

ثم إن التعبير بفى التى تفيد الظرفية فى قوله: "فيها" يوحى بالتلبس، وأن الجنات صارت ظرفاً لهم، وأنهم بداخلها تحيط بهم أشجارهم، وتجرى من حولهم أنهارها، لا يدركون لها طرفاً أو نهاية مع حركتهم فيها، وهذا يعنى: اتساعها، وأنهم لا يحيطون بما فيها من ألوان النعيم.

ثم تأمل ما اشتملت عليه الآيات من مؤكدات، فقد افتحت الآيات بقوله: "إن الذين آمنوا" فاشتملت من المؤكدات على "إن" واسمية الجملة، ثم تقديم الجار والمجرور بما يفيد ذلك من اختصاص، ثم التأكيد على دوام ذلك النعيم بقوله: "خالدين" واستخدام" فى "التى تفيد الظرفية، ثم بقوله: "وعد الله حقا".

يقول الزمخشرى: إنهما مصدران مؤكدان. الأول مؤكد لنفسه، والثانى مؤكد لغيره، لأن قوله: "لهم جنات النعيم" فى معنى: وعدهم الله جنات النعيم. فأكد معنى الوعد بالوعد، وأما "حقاً" فدال على معنى الثبات، أكد به معنى الوعد. والمصدران مؤكدان لقوله: "لهم جنات النعيم"[1].

ورغم ما ذكره الزمخشرى إلا أنه لم يشر إلى سر التوكيد، وأشار إليه الإمام البقاعى بقوله: "استأنف قوله: "إن الذين آمنوا" مؤكداً لأجل إنكار الكفرة"[2] هذه عبارته، وهو يشير بها إلى أن داعى التوكيد إنما هو مواجهة إنكار الكفرة أن يكون للمؤمنين كل هذا النعيم.

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٧٧.

(٢) نظم الدرر جـ٦ ص ٨.

وأرى أن التوكيد – هنا – ليس لأنهم خوطبوا خطاب المنكر فحسب، بل لأنهم كانوا يرون أنفسهم لما كان لهم من سلطان ومنعة وشوكة، أكبر من أن يعذبوا، والمؤمنين لأنهم قلة ومستضعفون أدنى من أن ينعموا أو يفوزوا بالخلد، حسداً واستكثاراً للنعمة عليهم.

فكان الآيات لما تؤكد على ما أعده الله لعباده المؤمنين، تشير إلى مدى استحقاقهم لهذا النعيم، وأنهم أهل له، بما قدموا من إيمان وعمل صالح، وتشعل فى نفوس الآخرين نار الحقد والحسد. وتحرك الكامن فى أنفسهم من الحنق والغيظ.

"**وهو العزيز الحكيم**" :

أى هو وحده، ولا أحد معه أو سواه – الذى لا يغلبه شئ، ولا يعجزه شئ، لأنه القاهر فوق كل شئ، فلا يعجزه الوفاء بما وعد، "والحكيم": أى الذى لا يشاء إلا ما توجيه حكمته وعدله، ولا يزهل عما وعد، ولا يخطئ من وعد "فهو من التذييل بالأعم"[1].

(١) التحرير والتنوير جـ٢١ ص ١٤٥.

المبحث الثالث

الإشارة إلى قدرة الحق ـ سبحانه وتعالى – فى خلق السماوات والأرض وما فيهما وما يستلزمه ذلك من حكمة

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[1].

وهو كلام مستأنف جئ به للاستشهاد – بما فصل فيه من خلق السموات، وإلقاء الرواس فى الأرض، وبث الدواب فيها وانزال الماء من السماء – على عزته – عز وجل – التى هى كمال القدرة، وحكمته الى هى كمال العلم وإتقان العمل، وتمهيداً لقاعدة التوحيد، وتقريره، وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله. من جهة أنه إذا ثبت أن الله هو خالق المخلوقات، فلا يستحق غيره أن تثبت له الإلاهية، فكان إدعاء الإلاهية لغير الله، هو العلة للإعراض عن آيات الكتاب الحكيم، فهم لما أثبتوا الإلاهية لما لا يخلق شيئاً، كانوا كمن يزعم أن الأصنام مماثلة لله تعالى فى أوصافه وذلك يقتضى انتقاء وصف الحكمة عنه، كما هو منتف عنها، فدلل على حكمته، وعزته وأنه المستحق للإلاهية والعبودية بما فصل فى هذه الآيات. فهو خطاب للكفار الذين أعرضوا عن آيات الكتاب الحكيم، دل عليه قوله: "ترونها"، و"بكم".

---

(١) لقمان: ١٠، ١١.

وتلاحظ هنا أن الكلام قد سيق بدون توكيد، وذلك لأن أحداً لا يدعى أنه خلق السموات، أو أنه شارك فى خلقها، فكأنه نزلهم منزلة من لا ينكر ذلك ويقره لله سبحانه وتعالى خالصاً، وكأنه لا يعتد بما هم عليه من إنكار أو يشير إلى الإنكار ويوحى به، فهم قد عبدوا غيره، وتركوا آياته، وهذا دليل على أنهم ينكرون ذلك على الله، وإلا لكانوا أول من آمن، وهذه الحال - التى عليها المخاطبون لم يلتفت إليها الأسلوب، ولم يعبأ بها وساق الكلام عاريا من التوكيد، كما يساق إلى النفس الخالية، من الإنكار، إشارة إلى أنهم لو أنصفوا لعدلوا عماهم عليه، ولأن قضية الخلق محسومة لله تعالى ولا ينغبى أن تكون محل إنكار.

"وهذا الأسلوب له أثره الغالب فى النفس، حين تجد الكلام الذى يواجه بالرفض والجحود خالياً من الاحتفال والتوكيد، خافت النبرة هامساً بالحقيقة فى غير جلجلة وضجيج"[1] وكأنه يشير بذلك إلى وضوح الحقيقة وقوتها، وأنها مما لا ينبغى أن ينكرها عاقل، وفى ذات الوقت كأنه يحس المخاطب من طريق خفى على الرجوع عما هو عليه من أمارات الإنكار وعلاماته.

وكمال الخلق والقدرة والحكمة إنما يتجلى فى أن السماوات على علوها وضخامتها بغير عمد، وقوله "ترونها" مستأنف كأنه جواب سؤال تقديره. ما الدليل على أنها مخلوقة بغير عمد؟ فكان الجواب: ترونها أى بلا عمد، لأنها لو كانت بعمد رؤيت.

ويكون الضمير فى "ترونها" للسموات. "وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معموده، كما تقول لصاحبك. أنا بلا سيف ولا رمح ترانى.

(١) خصائص التراكيب ص ٥٣، ٥٤.

أوهى فى محل الجر صفة للعمد. أى: بغير عمد مرئية يعنى: أنه عمدها بعمد لا ترى، وهى إمساكها بقدرته"[١] وهو أدخل فى الحكمة وأدق فى اللطافة والعظمة، لأنه يحتاج إلى عملية: تخفيف الكثيف، وتقوية اللطيف"[٢].

والعمد: جمع عماد مثل: أهب وإهاب. وهو ما تقام عليه القبة والبيت.

والرواسى: جمع راس من الرسو: وهو الثبات والتمكن فى المكان. والمعنى: جبالا رواسى، وقد حذف موصوفة لظهوره. فهو كقوله: "وله الجوارى" أى السفن الجارية.

"والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما فى خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف خلقة المعادن فهى خفية"[٣]، "وهذه الرواسى لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض، وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها بالإلقاء، الذى هو رمى شئ على الأرض، ولعل خلقها كان متأخراً عن خلق الأرض.

وتعديه الإلقاء بفى تشير إلى تلبس الرواس بالأرض، وأنها تغوص فى أعماقها، وأنها ثابتة مستقرة فى مكانها.

وقوله: "**أن تميد بكم**" :

تعليل لإلقاء الرواسى فى الأرض، والميد: الاضطراب، وضمير "تميد" عائد إلى الأرض بقرنية قوله: "بكم" لأن الميد إذا عدى بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشئ المستقر فى الظرف المائد. والاضطراب يعطل مصالح الناس ويلحق بهم آلاماً.

---

(١) الكشاف جـ٣. ص ٤٧٧.
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٩.
(٣) التحرير والتنوير جـ١٣، ص٨٢.

ولما كان المقام مقام امتنان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه، فالكلام جار عل حذف تقتضيه القرينة. والتقدير: لأن لا تميد بكم، أو على حذف مضاف بين الفعل المعلل و"أن" تقديره: كراهية أن تميد بكم[1].

وأخر قوله: "وبث فيها من كل دابة" عن قوله: "وألقى فى الأرض رواسى" لأن بث الدواب فى الأرض وانتشارها متوقف على إزالة الميد.

ثم تأمل قوله – سبحانه – : "وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم" وكيف عطف، ورتب الإنبات فى الأرض، على نزول الماء من السماء بالفاء، مما يشير إلى رحمته، وكرمه، وعطفه على خلقه، إذ أن العطف بالفاء لما كان للترتيب والتعقيب، دل على أن الإنبات لا يتأخر عن نزول الماء وإنما يكون فى عقبه مباشرة. ثم إنه مرتب عليه، وجعل نزول الماء من السماء. أى من مكان لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه، ولعل ذلك هو سر التعبير بالسماء، مع أن المطر لا ينزل منها، وإنما ينزل من السحاب. أضف إلى ذلك، أن السماء الدنيا بما فيها، من أظهر وأوضح الآيات على قدرة الخالق سبحانه، والتى حث القرآن على النظر إليها والتأمل فيها كثيراً، فلعله بالتعبير بها –هنا– يريد أن يلفهتم إليها لفته متأمل، ومفكر.

ثم إنك تلاحظ أن الكلام من بدايته عن خلق السموات وإلقاء الرواسى فى الأرض، إنما سار على طريقة الإسناد للغائب، ثم إلتفت من الغيبة إلى التكلم عند الحديث عن إنزال الماء، وإنبات الزرع، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وإنزل، فأنبت، لكنه انتقل إلى التكلم،وهذا – كما يقول البلاغيون – "ليحدث إيقاظا ولفتا عند هذا

(١) التحرير والتنوير جـ١٤، ص١٢١.

المقطع المهم من مقاطع المعنى"[1] لأن إنزال الماء من السماء، وإنبات الزرع، مما تتعلق به حياة الأرواح وبقاؤها فى الأرض، إضافة إلى أنه ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينقل الإسناد إلى ضمير ذى الجلالة.

"والكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب – كان- أدخل فى القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه"[2].

ولما كان الكلام عن خلق السموات بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض، ونشر الدواب فيها، وإنزال الماء من السماء لإنبات ضروب مختلفة من الزروع والثمار، مسوقاً للاستشهاد على عزته، وحكمته، وتقرير توحيده، وإبطال أمر الإشراك، وتبكيت أهله، من جهة أنه إذا ثبت أن ذلك كله خلقه، ثبتت إلاهيته بما تقتضيه من عزة وحكمة. "قال ملفتاً للمحسنين من حزبه، ما ينبهون به المخالفين، موبخاً لهم، مقبحاً لحالهم فى عدولهم عنه، مع علمهم بما له من التفرد بهذه الصنائع – : "هذا خلق الله".

وكأنه بعد هذه الرحلة من التأمل والتفكر فى حال السموات، وكيف رفعها – سبحانه – بلا عمد آية مرئية مشاهدة، مما يدل على طلاقة قدرته، وكيف ألقى فى الأرض رواسى لئلا تميد وتضطرب، فأمكن للإنسان أن يسعى وينام، ويبنى فوقها، من غير قلق ولا اضطراب، ثم إنه بث فيها من كل دابة مما ينتفع به الإنسان، وفصله الحق سبحانه فى مواضع أخرى من كتابه العزيز المحكم بقوله تعالى:

---

(١) خصائص التراكيب ص ١٩٩.
(٢) المفتاح ص٢٩٦.

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقولـــه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾(٢).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٣)

وكيف أنه أنزل من السماء ماءً فأنبت الزروع والثمار مما به قوام الإنسان وكل الدواب.

أقول بعد هذه الرحلة من التأمل قال مشيراً إلى ما سبق: "هذا خلق الله" أى ما ترونه قريباً منكم، وبين أيدكم، فضلاً عـن أنفسـكم خلق الله.

(١) النحل : ٥، ٦، ٧،٨.
(٢) النحل : ٦٦.
(٣) النحل : ٨٠.

فاسم الإشارة يوحى "لوضعه للقرب"، ولما فيه من تنبيه، بأن هذه النعم إنما كانت من أجل الإنسان، وفى متناول يده، وهذا أدعى لشكرها، والاعتراف للحق بالفضل فيها، مما لو كانت بعيدة.

ثم إنه عبر بالمصدر "خلق" بدل اسم المفعول، وكان حقه أن يقول: هذا مخلوق الله، إلا أن للتعبير بالمصدر – هنا – إشارات البلاغية تناسب ما أبدع عليه القرآن من فصاحة وبيان.

فالخلق: مصدر خلق يخلق، ولما كان المقصود أن ينظر الإنسان إلى هذه المخلوقات نظرة اعتبار لانظرة استحسان – لأنه قد ينظر إلى الشئ يستحسنه، ويستقبحه غيره – كان التعبير بالمصدر فيه توجيه إلى نوع النظر المطلوب، وهو نظر إلى طريقة الخلق والإبداع،وإلى الكيفية التى تم بها خلق هذه الأشياء، وإلى الدقة والحكمة فى خلقها، وكيف أنها تناسقت فيما بينها بحيث لا يتعارض منها شئ مع شئ.

ولعل ذلك يؤيده قول الحق – سبحانه – فى سورة الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[1].

فكان النظر هنا – نظراً إلى كيفية خلق المخلوق، وليس إلى ذات المخلوق، وأنه مما يعجز عنه الإنسان الذى يعقل، فضلاً عن تلك الأحجار التى اتخذوها آلهة وهى لا تعقل، وأن هذا الخلق لا يقدر عليه إلا من كانت كل القوى والقدر إلى جانب قدرته عجز، وكل العلوم إلى جانب علمه جهل، وأن هذه الطبيعة فى الخلق على هذا

(١) الغاشية الآيات ١٧،١٨،١٩،٢٠.

الكمال والإتقان لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه، ولذا جاء الخبر مجرداً من ألوان التوكيد.

وقد أشار الزمخشرى إلى ذلك إلا أن إشارته جاءت موجزة، حيث قال: "هذا" إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته، والخلق بمعنى المخلوق"(١).

ثم إنه أضاف "الخلق" إلى لفظ الجلالة، فأكد بهذه الإضافة على كمال الصنعة، وجمال الخلق.

ثم يأتى قوله: "فأرونى" أى إذا كنتم قد أقررتم بأن هذا خلق الله، فالفاء واقعة فى جواب شرط مقدر،أى إذا علمتم ذلك فأرونى"(٢).

والأمر هنا ليس على حقيقته – التى هى طلب الفعل على جهة الاستعلاء – وإنما يراد به التعجيز والتهكم على حد قوله تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾(٣).

"ولكن التهكم أسبق، للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعاً نظريا..

وصوغ أمر التعجيز من مادة "الرؤية البصرية"، أشد فى التعجيز، لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئاً يدعون أن آلهتم خلقته(٤).

والتعبير بالموصول وصلته هنا، للاحتراز عن ذكر أصنامهم، فضلاً عما يُوحى به من خسة وحقارة وضعف، ورداءة من هم من دون الله.

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٤٧٧.
(٢) روح المعانى م١١ جـ٢١ ص ٨١.
(٣) البقرة : ٢٣.
(٤) التحرير والتنوير جـ٢١ ، ص١٤١١.

ثم تأمل صياغة الكلام بأسلوب الاستفهام في قوله: "ماذا خلق" وهو أبلغ فى التهكم بهم، لأنه يستلزم جواباً منهم، فكأنه يلجؤهم إلى الإقرار بعدم الإلهية من عبدوهم – فضلاً عن ضلالهم، بطريق الكناية والاستدلال، لأنه إذا لم يثبت أنهم قد خلقوا شيئاً، فهذا يعنى أنهم ليسوا آلهة، فإذا وجد من يعبدهم من دون الله فهو فى ضلال مبين ٠

لذلك جاء قوله تعالى: "بل الظالمون فى ضلال مبين" مضرباً عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتوسط فى ضلال ليس بعده ضلال، ومجئ فى التى تفيد الظرفية مشير إلى اكتناف الضلال بهم فى سائر أحوالهم، وشدة ملابسته إياهم، وأنه قد صار يحيط بهم من كل جانب ٠

المبحث الرابع
أنموذج لمن آتاه الله الحكمة فانتفع بها

بعد أن أشار الحق إلى جانب من أفعاله التى تدل على كمال حكمته، وكان قد افتتح السورة بالإشارة إلى آيات كتابه المحكم، التى هى أقواله، فكأنه يستدل على حكمته بقوله المحكم وفعله المحكم، وكان قد ذكر فريقاً ممن أعرضوا عن الانتفاع بذلك قال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[1].

فالواو فى قوله: "ولقد" عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدمة فى قوله تعالى: "ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله" باعتبار كونها تضمنت عجيب حاله فى الضلالة، من عنايته بلهو الحديث، ليضل عن سبيل الله، ويتخذها هزوا، وباعتبار قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان فى الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان.، فقطع النظر عن كون قصة النضر سيقت مساق المقدمة والمدخل إلى المقصود، لأن الكلام لما طال فى المقدمة خرجت عن سنن المقدمات إلى المقصود بالذات، فلذلك عطفت عطف القصص، ولم تفصل فصل النتائج عقب مقدماتها[2].

وعطف القصة على القصة يعنى عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، ولا يشترط فى هذا النوع التناسب بين أجزاء الكلامين وإنما يشترط التناسب بين مضمون الكلامين، أى لابد من مناسبة بين معنى الكلام المعطوف ومعنى الكلام المعطوف، عليه، وهذا باب جليل من أبواب الفصل والوصل"[3].

---

(١) لقمان: ١٢.

(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٤٨.

(٣) من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د. محمد محمد أبوموسى ص ٨٤.

وبيان ذلك فى هذه الآيات أنك تلاحظ أن المعطوف هو إيتاء لقمان الحكمة، التى فسرت بالشكر لله، وأن من شكر فإنما يشكر لنفسه،وبيان أن الله غنى عمن كفر، وأن الشرك بالجملة ظلم عظيم، إلى آخر قصة لقمان بما تضمنه من عجيب حالة فى الاهتداء والحكمة. وأن المعطوف عليه هو من أول قوله: "ومن الناس من يشترى لهو الحديث" أى من أول بيان حال من ضل عن سبيل الله، وأنت إذا ذهبت تبحث عن مناسبة بين أجزاء الكلامين، كما هو الشأن فى البحث عنها بين الجملتين المتعاطفتين، لأعياك ذلك ولم تجده، ولكنك إذا بحثت عن مناسبة بين معنى الآيات السابقة، التى تدور حول العجيب من حال رجل يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، أى أنه يترك ما ينفع، ليأخذ بدلاً منه مالا ينفع فضلاً عن كونه جالباً للضرر، فكان ذلك من وضع الأشياء فى غير مواضعها، مما يشير إلى سفه صاحبه، ومجانبته للصواب.

وبين معنى آيات تذكر قصة رجل أوتى الحكمة، فشكر لله، وحث غيره على شكره، كما أنه حذرهم من الشرك، فإنك تلاحظ مناسبة واضحة بين معنى الكلامين ومفهومهما وهى التنافى والتضاد.

يقول عبد القاهر فى بيان ما ينبغى أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه من مناسبة: "واعلم أنه كما ينبغى أن يكون المحدث عنه فى إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى، كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى مما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول"[1].

وقيل بأنه كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل، بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل[2] وافتتاح القصة هنا بحرفى التوكيد "لام القسم وقد" للإشارة إلى تضمنها أخباراً عجيبة وأموراً مهمة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٢٥.

(٢) روح المعانى م ١١ جـ٢١ ص٨٢.

ولقمان اسم رجل حكيم صالح، وكما يقول الزمخشرى: "هو لقمان بن باعورا: ابن أخت أيوب – عليه السلام- أو ابن خالته، وقيل ان من أولاد آذر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود – عليه السلام- وأخذ منه العلم، وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا أكتفى إذا اكفيت، وقيل كان قاضيا فيى بنى إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان راعيا أسود،فرزقه الله العتق، ورضى قوله ووصيته، فقص أمره فى القرآن لتمسكوا بوصيته.....

وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياطاً، وعن مجاهد كان عبدا أسود غليظ الشقتين متشقق القدمين. وقيل كان نجاراً. وقيل: كان راعياً، وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه: أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت ترانى غليظ الشقتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض، وروى أن رجلاً وقف عليه فى مجلسه فقال: ألست الذى ترعى فى مكان كذا؟ قال بلى. قل ما بلغ بك ما أرى؟ قال صدق الحديث، والصمت عما لا يعنينى"(١).

وقد اختلف السلف فى أن لقمان المذكور فى القرآن كان حكيما، أو نبيا. فالجمهور قالوا: كان حكيما، واعتمد مالك على الثانى فذكره فى جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم. وذلك يقتضى أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة(٢). وذكر ابن عطية: أن ابن عباس قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لم يكن لقمان نبيا، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه فمن عليه بالحكمة وخيره فى

(١) الكشاف جـ٣، ص ٤٧٧، ١٧٨.
(٢) التحرير والتنوير جـ١، ص١٤٩.

أن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: يارب إن خيرتنى قبلت العافية، وتركت البلاء، وإن عزمت على فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى، وكان قاضيا فى بنى إسرائيل نوبيا أسود مشقق الرجلين ذا مشافر"[1].

و"الحكمة" عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم، وذكر الألوسى- ما روى عن ابن عباس فى تفسير الحكمة - أنها "العقل، والفهم، والفطنة" وقيل إنها: العقل، والفقه، والإصابة فى القول، وقال الراغب: هى معرفة الموجودات وفعل الخيرات[2].

وقيل هى عبارة عن: توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة[3].

وقد ذكر الله الحكمة فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم مراداً بها ما فيه صلاح النفوس من النبوة، والهدى، والإرشاد. كقوله تعالى فى داود عليه السلام:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[4].

وعلى كل فهذا يعنى أن لقمان قد أوتى خيراً كثيراً لما آتاه الله الحكمة، مصداقاً لقول الحق: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى جـ٤، ص٣٤٧.

(٢) روح المعانى م ١١ جـ٢١ ص ٨٢.

(٣) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ص ١٣، جـ٢٥، ص١٢٧ ط بيروت.

(٤) ص : ٢٠.

(٥) البقرة: ٢٦٩.

و"أن" مفسرة للحكمة باعتبار أنها أقوال أوصيت إليه، أو ألهمها، فيكون فيها معنى القول دون حروفه، فيصلح أن تفسر "بأن" التفسيرية.

وقد أشار ابن هشام إلى شروطها فقال: "أحدها أن تسبق بجملة، والثانى أن تتأخر عنها جملة، والثالث: أن يكون فى الجملة السابقة معنى القول، والرابع: أن لا يكون فى الجملة السابقة أحرف القول[1].

فتكون الحكمة التى آتاها الله لقمان قد فسرت بأنها "شكر الله سبحانه وتعالى".

وهذا يعنى أن أول ما لقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة فى نفسه، بأن أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من النعم التى لا تحصى ولا تعد، والتى منها: إعطاؤه الله الحكمة.

فيكون قوله تعالى: "أن اشكر الله" من بديع الإيجاز فى القرآن الكريم لأنه فسر الحكمة، وأرشد الناس إلى شكر الله مع الشروع فى الأمر المشكور عليه، تنبيها على المبادرة بالشكر عند حصول النعمة.

ثم إنه نبه على أن الشاكر حظه لنفسه، وأن فائدة شكره لنفسه، وذلك بقوله: "ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه" بصيغة حصر نفع الشكر فى الثبوت للشكر، ثم زاد هذا المعنى بياناً بأن عطف عليه ضده بقوله: "ومن كفر فإن الله غنى حميد" أى لا ينفعه شكر العباد، فلا يتضرر بكفران الكافر، وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه.

والشكر: يتعدى فعله إلى مفعوله بنفسه، فيقال: شكرت الله، وشكرت نعمة الله، ويتعدى بالباء فيقال: شكرت بالله وباللام فيقال:

(١) راجع معنى اللبيب لابن هشام جـ١، ص٣١، ٣٢.

شكرت لله، إلا أن تعديته باللام هنا خاصة فى قوله: "أن اشكر لله" لإفادة معنى الاستحقاق أى أنه سبحانه هو المستحق للشكر، فيكون قوله: "أن اشكر لله" قد فسر الحكمة، وأوجب الشروع فى الشكر لله، وبين سببه.

والتعبير مع الشكر بالفعل المضارع فى قوله تعالى "ومن يشكر" فيه إشارة إلى ما ينبغى على العبد من تجديد الشكر، وتكريره فى كل وقت وحين لتكرير موجبه وهو النعمة، وأول شكر العبد لله، إنما ينبغى أن يكون على أن علمه الله أن يشكره ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله، بل أبداً يكون منه شئ فى العدم يريد الشاكر إدخاله فى الوجود، ولذلك قال سليمان عليه السلام:﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾[1] فذكره بصيغة تدل على المستقبل تنبيها على أن الشكر بكماله لما يقع منه عليه السلام.

وعبر مع الكفران بقوله: "ومن كفر" أى: بالماضى دون يكفر مثلاً، إشارة إلى أن الكفر ينبغى أن ينقطع، وأن من كفر ينبغى أن يترك الكفران، وأن أى جزء يقع منه فهو يقع تاماً.

ثم إن التعبير هنا كان حقه أن يقال: ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن لم يشكر، أو من ترك الشكر، أو أعرض عنه، إلا أنه عبر عن ذلك فى مقابله ثبوت الشكر، ووقوعه بقوله: "ومن كفر"، ليشير إلى أن الإعراض عن الشكر بعد وقوف العبد على نعم الله عليه، وتعليمه كيفيته، وأن المستحق له إنما هو الله، وأنه واجب على العبد، إنما هو كفر للنعمة، وجحود لفضل الله، ومجانبة لما تقضيه الحكمة والعقل.

---

(١) النمل: ١٩.

ثم تأمل قوله: "فإن الله غنى حميد" وكيف كشف عن عدم احتياج الله لشكر عباده بإسناده الغنى والحمد لذاته، وهو أبلغ مما لو قيل: ومن كفر فإن الله يحاسبه، أو يعذبه، أو ليس فى حاجة إلى شكره، لأنه يعنى أن الله ليس فى حاجة إلى شكر كل عباده – على فرض أنه لن يشكره منهم أحد لأنه "غنى" عن شكرهم، "حميد" كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلها، أو حميد فى ذاته من غير حمد العباد، ثم إنه يوحى فى المقابل بمدى فقر العبد، واحتياجه إلى شكر الله وحمده لما يجره ذلك إليه من فوائد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

قوله: "وإذ قال" معطوف على جملة " ولقد آتينا لقمان الحكمة" لأن الواو نائبة مناب الفعل، فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التى أوتيها لقمان.

والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه، فهو فى وقت قوله ذلك لابنه قد أوتى الحكمة، فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة. "وإذ" ظرف متعلق بالفعل المقدر الذى دلت عليه واو العطف، والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه، وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدى والإرشاد[2].

ومقولة لقمان لابنه فيها إشارة تدل على شكره فى نفسه، قبل أن يأمر غيره، وهذا أدعى لقبول الموعظة.

وقوله:"وهو يعظه" جملة حالية، تشير إلى أن ابنه كان على حالة تستدعى الوعظ والإرشاد، لأن الوعظ زجر مقترن بتخويف،

(١) لقمان: ١٣.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٥٣، ١٥٤.

والمزجور عنه يعرف بمتعلق فعل الموعظة، وهو – هنا – النهى عن الإشراك بالله، وهذا يعنى أن ولده كان على الشرك عندما قال له ذلك، فالنهى أصله أن يكون عن الشئ حين التلبس به.

وقد افتتح لقمان الموعظة –هنا– بالنداء، أى بنداء ابنه، مع أنه قد سبق فى الكلام ما يشير إلى أن الموعظة إنما كانت لولده فى قوله: "وإذا قال لقمان لابنه" فهذا يعنى أنه بحضرته، فإذا جاء بعد ذلك واستخدام النداء – الذى هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظا أو تقديراً[1] وهو: "يا" الموضوع للبعيد – دل على أنه مستعمل مجازاً فى طلب حضور الذهن لوعى الكلام، "وهذا يعنى الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، وأنه بلغ من علو الشأن، إلى حيث إن المخاطب لا يفى بما هو حقه من السعى فيه، وإن بذل وسعه واستفرغ جهده، فكأنه غافل عنه بعيد"[2].

ولولا هذه الإشارة لجئ بـ "أى" أو "الهمزة" وهما من الحروف الموضوعة لنداء القريب، لأن ابنه قريب منه كما دلت الآية من قبل.

"ولم يقع فى القرآن الكريم نداء بـ "أى" ولم يقع فيه نداء بالهمزة وإنما استعمل فى النداء "يا" وحدها، دون غيرها، لأنها أندى، وأنفذ[3].

وتصغير المنادى هنا: التنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به، والتحبب له، وهو فى مقام الموعظة والنصيحة، كناية عن امحاض النصح، وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة"[4].

---

(١) راجع المطول ص ٢٤٤.
(٢) المطول ص٢٤٤.
(٣) من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب. د/محمد محمد أبو موسى ص٤٣.
(٤) التحرير والتنوير جـ٢١، ١٥٥.

فكأنه خاطب ولده بأحب ما يخاطب به، مع إظهار الترحم، والتحنن، والشفقة.

والشرك: هو الاسم من قولك: أشرك بالله، أى:جعل له شريكا فى ملكه – تعالى عند ذلك–، والشرك: أن يجعل لله شريكا فى ربوبيته –تعالى الله عن الشركاء والأنداد والشرك: الكفر.

ولذلك كان طلب الإقلاع عن الشرك، أول ما ابتدأ به لقمان موعظته لابنه، وهو يشير بذلك إلى أصل عظيم من أصول الإصلاح ومنهج سديد من مناهج التقويم،وهو: أنه لا ينبغى أن تكون هناك دعوة للإصلاح، إلا بعد أن تنقى الشوائب، وتنزع جذور الفساد والضلال، وبذلك يؤتى الإصلاح والتقويم ثماره المرجوة، وإلا فانه سيكون كالزهرات الغضة، تنبت وسط أشجار الشوك، التى لا تلبث أن تتشابك أشواكها، فتشل زهرات الإصلاح الغض وتقتلها.

وأما قوله تعالى: "إن الشرك لظلم عظيم" فهو تعليل للنهى عن الشرك، ووجه الظلم فيه من جهة "أن التسوية بين من لا نعمة إلا وهى منه، ومن لا نعمة منه البتة – ولا يتصور أن تكون منه – ظلم لا يكتنه عظمه"[1]، لأن الحق هو الذى خلق فسوى وهو الذى أوجد فأبدع، وهو الذى صنع فأتقن، ثم إنه ظلم للنفس التى كرمها الحق سبحانه وتعالى. بدليل قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[2] من جهة أنه يضعها فى حضيض العبودية لأخس الجمادات، فيودرها بذلك موارد التهلكة، ويضعها حيث يغضب بارئها.

ثم تأمل كيف تكاثرت عناصر التوكيد فى هذا الخبر، فجاءت "إن"، و"اللام"، و "اسمية الجملة"، ووصف الظلم بأنه "عظيم"، وفى

(١) الكشاف جـ٣، ص ٤٧٨.
(٢) الإسراء : ٧٠.

ذلك إشارة إلى تفظيعه، وتهويل جرم مرتكبه، وليصور لقمان مدى الكراهية التى تملأ جوانب نفسه للشرك بالله، ثم إنه يسعى بذلك – أيضا – إلى تقرير ذلك المعنى وتثبيته فى نفس المخاطب، فيكون أدعى لاجتنابه.

وقد فصلت هذه الجملة على سابقتها، شأن كل جملة ترد بعد أمر أو نهى، إذ يثير نهيه عن الشرك فى النفس سؤلاً، وهو: لماذا ينهى عن الشرك؟ فيكون الجواب: "إن الشرك لظلم عظيم".

"وقد قالوا: إن هذا الفصل وصل خفى، أى إنه وصل بغير أداة الوصل التى هى الواو، فالوصل فيه يعتمد على اتصال المعنى، وهو مظهر من من مظاهر نشأة المعانى بعضها عن بعض، وتمهيد بعضها لبعض، حتى كأن الجملة الثانية تتولد عن الجملة الأولى، وكأن الأولى مهاد للثانية، وإرهاص بها، وهذا يفهم من قول البلاغيين فى هذا الاستئناف: إنه جواب عن سؤال مقدر، يتضمنه الكلام السابق، أى أن الكلام السابق يثير فى النفس خواطر تقتضى هذا الكلام وتستدعيه، فيأتى كفاء لحاجة النفس ووفاء لها"[1].

ثم إنه يفهم من قوله: "إن الشرك لظلم عظيم" عمومه، فيشمل كل وقت، وكل مكان، أى انه إذا وجد فى أى وقت وفى أى مكان، أو من أى إنسان فهو ظلم عظيم.

ولذلك لم يقل مثلاً: يا بنى لا تشرك بالله إن شركك. أى أنت، لأنه يفهم منه أنه يكون ظلما عظيما لو وجد من ابنه خصوصاً، لاختصاص والده بالحكمة مثلاً ولما كان هذا غير مراد قال "أن الشرك لظلم عظيم".

ولما ذكر – سبحانه– ما أوصى به ولده من شكر الله – سبحانه – لما من به على الإنسان من نعم كثيرة، كان أولها أن

(١) من أسرار التعبير القرآنى ص ٥١،٥٠.

منحه الوجود، ثم ذكر ما عليه الشرك من الفظاعة، والشناعة، والبشاعة، أتبع ذلك بذكر وصيته للإبن بوالديه لكونهما سببا وجوده، واعترافاً بالحق وإن صغر واحتراماً للسببية، وإيذانا بأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس، وتفخيماً لحق الوالدين قال مسنداً الأمر إلى ضمير العظيمة:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]

وهو كلام معترض بين وصية لقمان لابنه، لأنه مصوغ على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله، ومع أنه معترض إلا أنه لم يخل من مناسبة من جهة أن وصية لقمان لابنه – قبله– نهياً عن الشرك بالله، وهذا الكلام يؤكد ما ورد فى وصية لقمان من النهى عن الشرك أيضاً، كما أنها تشير إلى ما ينبغى على الوالد تجاه ولده من نصح، وتوجيه، وإرشاد، وأمر بما يصلح حاله، ومآله، وهذه فيها إشارة إلى ما ينبغى على الولد لوالديه من طاعة وإحسان.

ويقول الزمخشرى: "فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع فى أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيداً لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك"[2].

(١) لقمان: ١٤، ١٥.
(٢) الكشاف للزمخشرى ص ٤٧٩، جـ٣.

إلا أن الفرق بين النهى عن الشرك فى هذه الآية، والآية التى قبلها هو عمومه فى الأشخاص والأحوال، حتى لا يتوهم أن النهى خاص بابن لقمان، أو ببعض الأحوال دون بعضها، فحكى – هنا– أن الله أوصى بذلك كل إنسان وفى جميع الأحوال حتى حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك بالله.

وقد يقال فى المناسبة بين هذا الكلام وما سبقه: أنه لما حكى وصاية لقمان لابنه بما هو شكر الله بتنزيهه عن الشرك فى الإلاهية بين الله أنه – تعالى– أسبق منة على عباده، إذا أوصى الأبناء ببر الآباء، فدخل فى العموم المنة على لقمان جزاءً على رعيه لحق الله فى ابتداء موعظة ابنه – فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعى حقه، ويقوى هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين فى الأمر(١).

وقد يفهم أن المقصود من الكلام هو الوصاية بالوالدين، غير أن كلام الزمخشرى فى بيان وجه اعتراضه فى وصية لقمان، يشير إلى أن المقصود منه، هو النهى عن الشرك، حتى فى أحرج الأحوال وهى: حال مجاهدة الوالدين، فيكون قوله: "ووصينا الإنسان بوالديه" تمهيداً للمقصود من الكلام، وهو التأكد على النهى عن الشرك، من جهة أنه أراد أن يقرر وجوب بر الوالدين، قبل الأمر بالنهى عن طاعتهما إذا تعارضت مع طاعة الله، فيكون النهى عن الطاعة – هنا – نهيا عنه فى أولى الحالات بالطاعة وهى طاعة الوالدين، وحتى يكون النهى عن الشرك فيما دون ذلك من الأحوال، مفهوماً بفحوى الخطاب.

قوله: "ووصينا" الايصاء: أمر، أو نهى، يتعلق بصلاح المخاطب، خصوصاً، أو عموماً، وفى فوته ضر، وهى أبلغ من مطلق

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٢٦.

أمر، أو نهى، فلا تطلق الوصية إلا حيث يخاف الفوات، ولذلك كان إيثار القرآن لفظ وصينا، على: "أمرنا أو "نهينا" مثلا أبلغ، لأن المقصود منها إلهاب الهمم الاحتراز من الوقوع فى الشرك بالله، حتى ولو كان الدافع له هو بر الوالدين.

وهذه النقلة فى الكلام باسناد الفعل "وصى" إلى "نا" وهو ضمير العظيمة يوحى بالاهتمام، لأن الوصية صادرة من الحق سبحانه بما له من عظمة وحكمة، وقوة، وجبروت، وغيرها من المعانى التى يوحى بها الضمير.

وقوله: "حملته أمه وهنا على وهن" فى موضع التعليل للوصاية بالوالدين، قصداً لتأكيد تلك الوصاية، لأن تعليل الحكم يفيده تأكيداً، وقد فصلت عما قبلها، لأن قوله: "وصينا" فيه معنى الأمر، لذلك فهو مثير فى النفس سؤالاً عن علة الوصاية بالوالدين، فيأتى قوله: "حملته أمه وهنا على وهن" ليثير – إلى جانب تعليله للحكم – الدوافع فى نفس الدين على بر والديه، بما اشتمل عليه من تصوير لحال الأم، وقد بدت عليها أمارات الضعف نتيجة حملها، وكيف أن هذا الضعف يتزايد بامتداد زمن الحمل، فإذا أضيف إلى ذلك طبيعتها التى تخالف طبيعة الرجل، إذ أنها ليست فى قوة جسده، تخيل الابن ما يقارن حملها من التعب، والمشقة، والإجهاد.

وقد صور القرآن تلك المعانى أبلغ تصوير عندما آثر التعبير بالمصدر "وهنا" بدل اسم الفاعل "واهنة"، وهو يوحى بأن المرأة فى حملها، لا تكون واهنة فحسب، بل تكون هى "الوهن" نفسه، فاجتمع إلى وهن البدن وهن الحمل فصار وهنا على وهن.

"وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين، بذكر أحوال خاصة بالأم، اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضى الوصاية بالأب أيضاً للقياس، فإن الأب يلاقى مشاق، وتعباً فى القيام على الأم، لتتمكن من الشغل بالطفل فى

مدة حضانته، ثم هو يتولى تربيته، والذب عنه حتى يبلغ أشده، ولذا قال تعالى فى موضع آخر:﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]، فجمعها فى التربية فى حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته"[2].

فكان ذكر الحالة التى اقتضت البر بالأم تنبيهاً إلى ما للأب من أحوال تقتضى البر به أيضاً.

وقوله: "حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين" معترض بين قوله: "ووصينا الإنسان بوالديه" وقوله: "أن اشكر لى ولوالديك" فهو معترض بين المفسر والمفسر. وذلك لأنه "لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه، من المشاق، والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة،إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً،وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً، ومن ثم قال رسول ﷺ لمن قال له: من أبر؟ "أمك ثم أمك، ثم أمك" ثم قال بعد ذلك "ثم أباك"[3] وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره، وهو يقول فى حديثه بنفسه: أحمل أمى وهى الحمالة، ترضعنى الدرة والعلالة.ولا يجازى والد[4]فعاله[5].

(١) الإسراء : ٢٤.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٥٨.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: "قلت يا رسول الله من أبر؟. الحديث" وله شاهد فى الصحيحين من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة قال: "جاء رجل إلى رسول ﷺ فقال: من أحق بصحابتى؟ الحديث".
(٤) هو العربى يحمل أمه إلى الحج، وهى الحمالة: جملة حالية، أى:كثيرة الحمل، بحسب ما كان. أو من عادتها ذلك، وترضع: حال متداخلة، والدرة: كثرة اللبن وسيلانه، والمراد بها: اللبن الكثير والعلالة: بقية اللبن، والحلبة بين الحلبتين. العلالة: العلل: الشرب الثانى، وأراد بالوالد: الأم، أو ما يشمل الأب والأم.
(٥) الكشاف للزمخشرى جـ٣ ص ٤٧٩، ٤٨٠.

وهذا الكلام الذى ذكره الزمخشرى ذكره ابن عطية فى تفسيره حيث ذكر أنه الله – سبحانه – شرك الأم والوالد منها فى رتبة الوصية بهما، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل، ودرجة ذكر الرضاع، فتحصل للأم ثلاث مرات، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول ﷺ حين قال له رجل: من أبره؟ "قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم م؟ قال: أباك" فجعل للأب الربع من المبرة[1].

وهذا الكلام على وضوحه، إلا انه لا يخفى أن مساق الحديث إنما كان لتأكيد البر بالأم، وليس لتقسيمه، لينال الأب ربع المبرة.، لأنه لا معنى أصلاً لتفضيل بر الأم على بر الأم. ولعل سبب التأكيد للابن على بر الأم هو ما يلاقيه من رقتها،ولينها،وعطفها، ورحمتها، بخلاف الأب، فإن الأبناء يحذرون التفريط فى حقوقه، لشدته عليهم. فكأن لفظ الحديث مسوقاً لتأكيد البر بالأم، خشية التفريط فيه.

ولعل نظم الآية يؤيد ذلك، حيث جمعت فى الوصاية بين الوالدين فى أولها والشكر فى آخرها. فقال: "ووصينا الإنسان بوالديه" وفسر الوصاية بقوله: "أن اشكر لى ولوالديك".

وقوله: "وفصاله فى عامين" معطوف على قوله: "حملته أمه وهنا على وهن". وهما حالان، ذكرا لترقيق الابن على أمه، لأنهما يبعثان فيه دوافع الشفقة والرحمة.

والفصال: اسم الفطام. يقول ابن منظور: يقال: فصلت المرأة ولدها: أى: فطمته[2]، وذكر فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾[3].

---

(١) المحرر الوجيز صـ ٣٤٨، جـ٤.
(٢) راجع لسان العرب مادة فصل.
(٣) البقرة : ٢٣٣.

وذكر الفصال هنا بعد ذكر الحمل، لتعليل أحقية الأم بالبر، على رأى من قال ذلك، أو للتأكيد عليه، وبلاغته تكمن فى أن ذكره، يستلزم الرضاع، وليس العكس، ثم إن ذكر الفصال هنا – يشير إلى ما تتحمله الأم من حزن، وألم، وشفقة على الرضيع، لما تشاهده من ألمه، وحزنه فى مبدأ فصاله.

فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت:المعنى فى توقيته بهذه المدة أنها الغاية التى لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم، إن عملت أنه يقوى على الفطام، فلها أن تفطمه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[1].

ولذلك كان استخدام "فى" المفيدة للظرفية، أبلغ من استخدام "إلى" أو "من"، لأنهما يوجبان أن يكون الفصال لعامين، وهو غير مقصود.

وقد أشار الزمخشرى إلى بلاغة استخدام "فى" عند حديثة عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[2].

أى: اجعلوها مكاناً لرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح، لا من صلب المال، فلا يأكلها الانفاق[3] فلو قال: "وارزقوهم منها": لأفادت التبعيض المنقص: – لكن "فى" أفادت التبعيض غير المنقص من رأس المال.

(١) البقرة ٢٣٣.
(٢) النساء: ٥.
(٣) الكشاف جـ٣، ص ٤٦٢.

والمعنى: اجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا وتربحوا فتنفقوا عليهم من الربح لا من صلب المال.

وكذلك استخدام "فى" فى الآية التى بين أيدينا يفيد: أن فصاله قد يكون فى بعض العامين، بشرط ألا يؤثر ذلك على الولد، وإلا فالفصال فى عامين.

ولذلك يقول الإمام البقاعى: "والتعبير بـ "فى": مشير إلى أن الوالدين، لهما أن يفطماه قبل تمامها، على حسب ما يحتمله حاله، وتدعو إليه المصلحة من أمره"(١).

وجملة "أن اشكر لى ولوالديك" مفسرة للفعل "وصينا"، و"أن" تفسيريه. وقد فسرت الوصية بالوالدين، بما فيه شكر الله، لأنه المنعم بالحقيقة، بأن رقق قلب الوالدين على ابنهما، منذ كان جنيناً فى بطن أمه، وبأن يسر له أسباب الحياة، والنمو، والراحة قبل ولادته – وشكر الوالدين: لكونهما السبب فى وجوده، فعن طريقهما وجد، وفى حجرهما تربى وعاش.

"والمراد بالشكر المأمور به: الطاعة، وقيل: ما يرضى كالصلاة، والصيام بالنسبة إليه – تعالى– وكالصلة، والبر، بالنسبة إلى الوالدين"(٢). ولعل اقتران الشكرين من التمهيد لقوله تعالى: "وأن جاهداك على أن تشرك بى والبس لك به علم..." الآية.

وقوله تعالى: "إلى المصير" كلام مستأنف لتعليل الأمر بالشكر، ووجوب الامتثال، والتحذير من المخالفة. وساعد على ذلك، تقديم الجار والمجرور على المبتدأ "المصير" لأنه يعنى أن المرجع، والمآب، إلى الله –سبحانه وتعالى – وحده بما يعنيه ذلك من عقاب للعاصى وثواب للمطيع.

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٦، ص١٥.
(٢) روح المعانى مـ ١١، جـ٢١، ص ٨٥.

قوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾

إن شرطيه،وهى كذلك باتفاق النحاة، وهى – فى الأكثر – لتعليق الجواب على الشرط تعليقاً مجرداً، يراد منه الدلالة على وقوع الجواب، وتحققه بوقوع الشرط وتحققه، ومن غير دلالة على زمان، أو مكان، أو عاقل، أو غير عاقل، مع دلالتها على الشك أو الاستحالة[1].

"جاهداك": فى اللسان: "الجهد والجهد: الطاقة، وقيل: الجهد : المشقة، وهو ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاق، فهو مجهود، وجهد الرجل فى كذا أى: جد فيه وبالغ، والاجتهاد، والتجاهد: بذل الوسع والمجهود، والمجاهدة: المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل[2].

و "على" حرف جر يدل على الاستعلاء، ويدل على أن المجرور به قد وقع فوقه المعنى، الذى قبل على، وقوعاً حقيقياً، ومباشراً[3].

و "أن تشرك" يقال: أشرك بالله أى: جعل له شريكا فى ملكه – تعالى عند ذلك – والاسم: الشرك، وهو: يجعل لله شريكا فى ربوبيته، –تعالى عن الشركاء والأنداد– والشرك: أن تعدل بالله أحداً من خلقه، لأنه لا ند له ولا نديد[4].

والمعنى: أن الوالدين، مع ما أقر لهما القرآن فى نفوس أبناءهما من منزلة ومكانه، حتى إن الله – سبحانه– أوجب على

(١) النحو الوافى جـ٤، ص ٤٣٢.
(٢) اللسان: مادة "جهد".
(٣) النحو الطرفى ج٢، ص٥٠٩.
(٤) اللسان مادة: شرك.

الأبناء برهم، والإحسان إليهم، متوعداً المخالف،وواعداً المطيع بأن المآل والمصير إليه وحده.

ومع ما لها -أيضاً- من المنزلة، والمكانة عند الله سبحانه، إذ أنه وصى عليهما الأبناء فى أكثر من موضع فى القرآن، لكونه جعلهما سببا فى وجود الأبناء. أقول مع ذلك تأتى الآية -هنا- لتنبه على أن حق الآباء، وان عظم فهو ساقط إذا تعارض مع حق الله، وأنه لا طاعة لمخلوق مهما كانت منزلته، وفضله، إذا تعارضت مع طاعة الله.

فقول الحق: "وإن جاهداك على أن تشرك .." إنما تصور "المفاعلة" فيه، بما تشير إليه من جد، واجتهاد الأبوين المشركين، وكيف أنهما يستفرغان ما فى وسعهما، وطاقتهما، لحمل ابنهما على الإشراك بالله، والمعاناة التى يلاقيها الابن فى دفع ذلك عن نفسه بنفس درجة مجاهدة والديه، نتيجة إحساسه بالتمزق بين محاولاته إرضاء والديه، وإصداره على طاعة الحق سبحانه ويزيد من ذلك الإحساس، أن المجاهدة لم تكن من أحد والديه، ولكن من كليهما.

فتأتى هذه الآية لتضع حداً لهذه المعاناة، كما أنها تضاعف من إصرار الابن المؤمن، على ما هو عليه من طاعة الله رب العالمين، وتفهمه أنه لا تعارض أبداً بين طاعة الله سبحانه - والإحسان إلى الوالدين، وأن مخالفتهما فى ذلك لا يدخل فى باب العقوق.

واستخدام حرف الجر "على" - وهو موضوع للاستعلاء- يشير إلى مدى تمكن الوالدين، وغلبة سلطانهما، على الولد بما لهما من فضل واضح عليه.

ولعل فى قصتى سعد بن أبى وقاص الزهرى، وعياش بن ابى ربيعة المخزومى، ما يؤيد ذلك.

فقد روى أن سعد بن أبى وقاص الزهرى – ﷺ – حين أسلم قالت أمه – وهى: حمنة بنت أبىسفيان بن أمية بن عبدشمس يا سعد، بلغنى انك قد صبأت، فوالله لا يظلنى سقف بيت، من الضح والريح، وإن الطعام والشراب على حرام، حتى تكفر بمحمد – وكان أحب ولدها إليها – فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله –ﷺ– وشكا إليه، فأمره رسول الله – ﷺ– أن يداريها ويترضاها بالإحسان"[1].

وأما الثانية، فقد روى أن عياش بن أبى ربيعة المخزومى – هاجر مع عمر بن الخطاب – رضى الله عنهما– مترافقين، حتى نزلا بالمدينة، فخرج أبو جهل بن هاشم، والحرث بن هشام، أخواه لأمه، فنزلا بعياش وقالا له: إن محمداً يأمر ببر الوالدين، وقد تركت أمك، وأقسمت أن لا تطعم، ولا تشرب، ولا تأوى بيتاً حتى تراك، وهى أشد حبا لك منها لنا، فأخرج معنا. فاستشار عمر، فقال عمر: هما يخدعانك، فلم يزالا به حتى عصى نصيحة عمر، وخرج معهما، فقال له عمر: أما إذا عصيتنى، فخذ ناقتى، فليس فى الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع، فلما انتهوا إلى البيداء، قال أبو جهل: إن ناقتى قد كلت، فاحملنى معك. قال: نعم، فنزل ليوطئ لنفسه وله، فأخذاه وشداه وثاقاً وذهبا به إلى أمه، فقالت له: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد، وأوثقته عندها.

وقد قيل إن هذه الآية، وآية الوصية بالوالدين فى العنكبوت[2] والتى فى الأحقاف[3] قد نزلت فى هاتين القصتين.

---

(١) القصة فى صحيح مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص ولكن بغير هذا السياق وقد ذكره الواحدى بغير سند هكذا.

(٢) آية رقم (٨) وهى قوله تعالى: ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس.. إلى آخر الآية.

(٣) آية رقم ١٥ وهى قوله تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها.." إلى آخر الآية.

وأنت إذا تأملت فيهما لمست كيف تكون مجاهدة الوالدين بما لهما من تأثير على الولد – لحمله على الإشراك بالله. فأفهم الحق بهذه الآية، أن مخالفتهما فى ذلك، لا تدخل فى باب العقوق.

ثم تأمل كيف استخدمت الآية أداة الشرط "إن" لتوحى بدلالتها على الشك، أو الاستحالة فى أن ذلك يقع من الآباء، لأنهما مدفوعان بالفطرة، إلى العمل بما فيه صلاح الأبناء فى الدنيا والآخرة، – فكان حدوث ذلك، بما فيه من جلب الضرر للأبناء – مخالف للطبيعة- وهذا أدعى لمخالفتهما فيه.

ثم تأمل الخطاب فى قوله: "جاهداك" وما يوحى به من حضور هذا الوالد الصالح –الذى يجاهد والديه بالحسنى، ليظل معتصماً بعبوديته لله – سبحانه– فى حضرة الذات العلية، وكأنه استحق بذلك أن يكون قريباً منه سبحانه، يخاطبه خطاب الحاضر، وتأمل كذلك – فى ضمير التكلم فى قوله: "بى" وما يوحى به اختياره بدلا من ضمير العظمة – إذ كان حقه أن يقول: بنا – من معرفة هذا الابن بمن يخاطبه وأنه ربه الذى يستحق وحده، أن يعبد ويطاع، لما له من العظمة، التى أدركها بمعرفته بالله، فلم يعد فى حاجة إلى أن ينبه عليها. بضمير العظمة.

ثم إن صياغة هذا المعنى على طريقة الشرط، تعنى أن تحقق مدلول الشرط، ووقوع معناه شرط لتحقق مدلول الجواب ووقوع معناه، وأنه لا يمكن أن يتحقق معنى الجواب ويحصل، إلا بعد تحقق معنى الشرط وحصوله، إذ لا يتحقق المشروط إلا بعد تحقق شرطه[1].

وهذا يعنى أن عدم طاعة الوالدين، إنما هو أمر مرهون بمجاهدتهما للابن على الإشراك بالله، وإلا فإن طاعتهما واجبة لما

(١) راجع النحو الوافى جـ٤، ص٤٢٢.

سبق من الوصاية عليهما، ولذلك قال بعدها: "وصاحبهما فى الدنيا معروفاً" وهذا يعنى أن مصاحبة الابن والديه بالمعروف، حق ثابت لهما ولو كان مشركين.

ويؤيد هذا حديث أسماء بنت أبى بكر الصدق، عندما قالت لرسول الله ﷺ : "إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صلى أمك".

ثم أمره بإتباع سبيل من أناب إليه – سبحانه – بقوله: "واتبع سبيل من أناب إلى".

وإلا نابه هى: الرجوع إلى الله بالتوبة وأناب فلان وناب إلى الله تعالى إنابة: رجع إلى الطاعة. وقيل: ناب لزم الطاعة. والنوبة:حصة من عمل يتوزعه عدد من الناس(١).

"وأصلها فعلة بصيغة المرة، لأنها مرة من النوب، فإطلاق الفعل" أناب" على الطاعة والتوبة، ولزوم الطاعة من باب الاستعارة التبعية، وذلك لتعهد الطاعة تعهداً متكرراً من المطيع، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها ولذلك قال تعالى: مخبراً عن حال إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾(٢). والمعنى أنه: ملازم للطاعة، ومواصل لها.

"وجملة" ثم إلى مرجعكم" معطوفة على الجمل السابقة، و"ثم" للتراخى الرتبى، المفيد للاهتمام بما بعدها، أى: وعلاوة على ذلك كله إلى مرجعكم "فأثبئكم بما كنتم تعملون"(٣).

---

(١) راجع اللسان مادة: نوب

(٢) هود: ٧٥.

(٣) التحرير والتنوير جـ١، ص١٦١.

أى: "إلى مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم، وفيه شيئان:

أحدهما: أن الجزاء إلى، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برك، ومعروفك فى الدنيا، كما أنى لا أمنعهما رزقى.

والثانى: التحذير من متابعتها على الشرك، والحث على الثبات والاستقامة فى الدين، بذكر المرجع والوعيد"[1].

قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[2].

لما ختم – سبحانه – آية الوصية – بالوالدين – بذكر الرجوع إليه، وأن المرجع إليه فينبئ الناس بما كانوا يعملون – أى فى الدنيا – من صالح الأعمال وفاسدها، ظاهرها وباطنها، ناسب ذلك أن يشير إلى دقة علمه – سبحانه، وأنه محيط بجميع المعلومات، وقدرته المطلقة فى الإحاطة بجميع الموجودات فقال:

"يا بنى إنها إن تك مثقال حبة" ... المثقال: وزن معلوم قدره، ومثقال الشئ: ما آذن وزنه فتقُل ثقله، وهو فى الأصل مقدار من الوزن أى شئ كان،من قليل أو كثير،فمعنى:مثقال ذرة:وزن ذرة[3].

والخردل: ضرب من الحرف معروف[4]، وقيل: نبت له جذر وساق قائمة، متفرعة أسطوانية، أوراقها كبيرة، يخرج أزهاراً

(١) اللسان للزمخشرى جـ، ص٤٢٨.
(٢) لقمان: ١٦.
(٣) راجع لسان العرب مادة ثقل.
(٤) راجع اللسان مادة خدل وخردل

صغيرة صفراً، سنبلية، تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا، تخرج بذوراً دقيقة تسمى الخردل أيضا[1].

واللطيف: صفة من صفات الله واسم من أسمائه، واللطيف: هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل، والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه. والخبير: هو العالم بما كان وما يكون.

قوله: "يا بنى" سبقت الإشارة إلى المقصود بالنداء فيه[2]، غير انه كرره هنا – لإظهار فرط الشفقة والنصيحة، كما أنه يجدد نشاط السامع لوعى الكلام، وأنه من الأهمية بما يدعوا السامع للاهتمام به وأخذه على محمل الجد.

غير أن الحديث – هنا – لما كان يوحى بأن الله – سبحانه وتعالى– يحاسب عباده، على ما دق من الأعمال التى يستصغرها الإنسان، أو يظن – لجهله بإحاطة علم الله وشموله – بأن الله لا يعلمها، كان التصغير مشيراً إلى امتلاء قلب الأب بالشفقة، والعطف والحنان، فكأنه يقصد بتصغير ابنه عند ندائه، إلى التنبيه على ضعفه الذى لا يقوى معه على تحمل عقاب الله، وعجزه عن الإفلات منه، وهذا يعنى أنه ليس له ملجؤ من الله إلا إليه، وأن نقاء السريرة، هو أفضل ما يقدمه الإنسان لنفسه ذخراً وذادا.

ولأهمية الحبر المسوق هنا أكد بـ "إن"، ووقوع ضمير الشأن أو القصة بعدها، فضلاً عما يفيده النداء من لفت انتباه المنادى، وهذا كله إنما يفيد اهتمام المخاطب وإقباله على ما يأتى بعد ذلك، كما أنه تزيل ما عساه أن يكون فى نفس المخاطب، من غرابة فى مضمون الخبر.

---

(١) التحرر والتنوير جـ١، ص١٦٣.
(٢) سبقت الإشارة إلى المقصود منه ص

ويشير الشيخ عبد القاهر إلى استحسان دخول "إن" فى مثل هذه المواضع بقوله[1]:" ومن خصائصها، أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن، واللطف، ما لا تراه إذا هى لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها وذلك فى مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

وقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[3].

وسر هذا الحسن، وذلك اللطف راجع إلى ما يثيره هذا الضمير من شوق، وتطلع إلى ما يفسره، ويزيل إبهامه "لأنه ضمير غائب يأتى صدر الجملة الخبرية، وتفسره هذه الجملة"[4]، ولا شك أن استشراف النفس وتتطلعها، إنما يزيد إذا كان معه "إن"، فيجئ ما يفسره، والنفس أكثر تشوقا له، وأشد حرصاً عليه. "وكان العرب الفصحاء – ومن يحاكيهم اليوم–، إذا أرادوا أن يذكروا جملة اسمية، أو فعلية، تشتمل على معنى هام، أو غرض فخم، يستحق توجيه الأسماع والنفوس إليه، لم يذكروها مباشرة خالية مما يدل على تلك الأهمية والمكانة، وإنما يقدمون لها بضمير يسبقها، ليكون بما فيه من إبهام وتركيز، ولا سيما إذا لم يسبقه مرجعه، مثيراً للشوق، والتطلع إلى ما يزيل إبهامه، باعثا للرغبة فيما يبسط تركيزه، فتجئ الجملة بعده، والنفس متشوقة لها، مقبلة عمليها فى حرص ورغبة، فتقديم الضمير ليس إلا تمهيداً لهذه الجملة الهامة، لكنه يتضمن

(١) راجع دلائل الإعجاز ص٣١٧.
(٢) يوسف: ٩٠.
(٣) الحج: ٤٦.
(٤) همع الهوامع للإمام جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى متوفى سنة ٩١١هـ جـ١، ص٦٦، ٦٧ ط دار المعرفة، بيروت، لبنات.

معناها تماماً، ومدلوله هو مدلولها، فهو بمثابة رمز لها، ولمحة، أو إشارة توجه إليها"[١].

وقد أشار صاحب الدر المصون، إلى أن، ضمير الشأن فسرته الجملة الشرطية[٢]، وهذا يعنى أنه يقول بأن "إن" شرطيه.

و"مثقال" على قراءة النصب عن حفص خبر كان، وأصل الكلام "إن تكون مثقال، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، ثم حذفت منها النون، وعلى قراءة الرفع "مثقال" وهى لنافع وأبو جعفر تكون "كان" تامة، "ومثقال" فاعل و"إن" – هنا– تدل على أن مضمون ما بعدها من شأنه أن يتوهم تخلف الحكم عنه، فإذا نص على شمول الحكم إياه، علم أن شموله لما عداه بطريق الأولى"[٣]، وهى تؤذن بأن الشرط الذى بعدها شرط مفروض، هو غاية ما يتوقع معه انتقاء الحكم.

ويؤيد هذا، ما روى من "أن ابن لقمان قال له: أرأيت الحبة تكون فى مقل البحر– أى: فى مغاصه يعلمها الله؟، فقال إن الله يعلم أصغر الأشياء فى أخفى الأمكنة، لأن الحبة فى الصخرة أخفى منها من الماء"[٤].

"فكأن هذا، القول من لقمان، إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى، وهذه الغاية التى أمكنه أن يفهمه، لأن "الخردلة" يقال إن الحس لا يقدر لها ثقلا، إذ لا ترجح ميزاناً، وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علما"[٥].

---

(١) النحو الوافى فى جـ١ ص ٢٥٠.
(٢) الدر المصون للثمين الحلبى تحقيق الحراط جـ٩، ٦٤ ط دار القلم دمشق.
(٣) التحرير والتنوير جـ١٧، ص٦٥.
(٤) الكشاف للزمخشرى جـ٣، ص٤٨١.
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية جـ٤، ص٣٥٠.

وبذلك يفهم أن شمول الحكم بالإتيان لأدق الأجسام المختفية فى أصلب مكان، أو أقصاه أو أعزه، - والذى كان يتوهم المخاطب تخلف الحكم عنه - يعنى أن ما هو أقوى منه فى الظهور والقرب من التناول، أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته.

فكأن الإتيان هنا، ليس مقصوداً به حقيقته، وإنما هو كناية عن علم الله وقدرته، وأنه يحفظ ما دق ولطف، فيجازى عليه بالثواب، أو العقاب.

وجملة "إن الله لطيف خبير" يجوز أن تكون من كلام لقمان فهى كالمقصد من المقدمة، أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف، لأن النتيجة كبدل الاشتمال،..... ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان، تعليما من الله للمسلمين[1].

والآية هنا فيها دعوة للإخلاص فى السر والعلن، ولمراقبة الله فى القول والفعل، ما دام مطلعاً على كل شئ، وعلمه محيط بكل شئ.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[2].

لما أمر لقمان ابنه بشكر الله - سبحانه- منبهاً إياه على أن فائدة الشكر، إنما تعود إلى نفس الشاكر، لأن الله غنى حميد، ونهاه عن الشرك بالله - سبحانه وتعالى- لأنه يعنى الإقرار بوجود ند لله - سبحانه- وهذا ما لا يقره عقل، لأن الدلائل كلها قامت على أن الله هو الخالق لكل شئ، وما عداه مخلوق حادث، فإذا أشرك به - بعد ذلك - إنسان فإن شركه يكون ظلماً عظيماً، ثم أوقفه على قدرة الله

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٦٤.
(٢) لقمان : ١٧.

المطلقة، وعلمه المحيط بكل شئ، وأن ذلك يعنى أن الإنسان ليس بمنأى عن بطش الله – سبحانه وتعالى- وأنه خاضع لسلطانه، مما يكون دافعاً للاستقامة، والإخلاص لله رب العالمين.

والأمر بذلك إنما يدخل فى باب تعليم أصول العقيدة الصحيحة، والتى تركز على توحيد الله – سبحانه وتعالى- واستحقاقه وحده للألهوية الخالصة أقول: لما أمره بذلك – انتقل إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة. أو كما يقول الفخر الرازى: " لما منعه من الشرك، وخوفه بعلم الله وقدرته، أمره بما يلزمه من التوحيد، وهو الصلاة"(١).

وإقامة الصلاة: تعنى المداومة على أدائها كاملة فى أوقاتها دون نقص أو تأخير، أو فتور، وقد سبق الحديث عنها فى أول السورة(٢).

والأمر بالمعروف إنما يشمل الأمر بكل ما يستحسن من الأعمال، ويقرب إلى الله تعالى من طاعة، والإحسان إلى الناس. لأن "المعروف": ضد المنكر، وهو: ما يستحسن من الأفعال، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات(٣).

وذلك مثل: صدق الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والصاحب، والزوجة، والخادم، والعدل فى القول والفعل، وكذلك النهى عن المنكر: لأنه إنما

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٣٠.
(٢) ص
(٣) راجع اللسان مادة "عرف".

يدخل تحته النهى عن كل ما يندرج تحته، وأعظمه: الشرك بالله، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل أموال الناس بالباطل، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وتطفيف المكيال والميزان، إلى غير ذلك مما ينكره الشرع ويأباه.

وهذا يعنى: أن قوله: "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" إنما هو من الإيجاز البليغ، لأنك لا تجد لونا من ألوان الخير إلا وهو داخل تحت المعروف، ولا لوناً من ألوان الشر إلا وهو داخل تحت المنكر، فكأنه جمع كل ألوان الخير وأمره بها، وكل ألوان الشر ونهاه عنها، فوق حثه له على أمر الناس بالمعروف، ونهيهم عن المنكر. لأن الأمر بأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر،يقتضى إتيان الآمر وانتهاءه فى نفسه، لأن الذى يأمر بفعل الخير، وينهى عن فعل الشر، يعلم ما فى الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها فى نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم"[1].

وحذف المفعولين من قوله: "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" لإفادة العموم، أى يأمر كل أحد، وينهى كل أحد وجد على حالة تستدعى الأمر وتتطلب النهى..

ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يترتب عليه ترك هوى النفس، وحظها كان الإيذاء للآمر والناهى، حتم لازم، لا مفر منه، ولا معدى عنه، أعقبهما، بالأمر بالصبر على ما أصابه، ولعل التعبير بالماضى فى قوله: "ما أصابك" مع أنه لما يصدر منه أمر أو نهى، فيه إشارة إلى تحقق الإيذاء والضرر، نتيجة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولهذا أمر الرسول ﷺ بالصبر، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة، وأنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة "يا أيها المدثر" بعد أن أنزلت

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ١٦٥.

سورة "اقرأ" التى بها نبئ، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾[1].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار، وختمها بالأمر بالصبر، ونفسُ الإنذار أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر"[2]، وشرائط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر موجود بكتب الفقه[3].

وقد فصلت جملة: "أن ذلك من عزم الأمور" عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، وهو المسمى بالاستئناف البيانى، فالجملة الثانية، بمنزلة المتصلة بالجملة الأولى، لكونها جواباً لسؤال اقتضته الأولى، فتنزل الأولى منزلة السؤال، والثانية منزلة جواب يتصل ويلتحم بالأولى دون عطف.

بلاغة هذا النوع من الاستئناف، تكمن فى أن "الجملة الأولى تثير فيضا من الاستفسارات والاستفهامات، تثار حتما فى نفس المتلقى، تجذبه وتشركه فى الصياغة، ويكتفى الأسلوب بما يثيره فلا يظهر مصرحاً به، بل يظل مكنوناً فى الأسلوب والضمير، فى منطقة الظل،ثم تأتى الجملة الثانية تجيب عن السؤال، وتطفئ أشواق النفس أو تروى ظمأها، وتشبع هذا التطلع العاطفى للمجهول، فيتأكد المعنى من الناحية العقلية، ويحقق المتعة النفسية"[4].

---

(١) المدثر: ١-٧.
(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية ص ٥٦.
(٣) راجع الموسوعة الفقهية مادة أمر، نهى، وراجع تفسير الكشاف جـ١، ص ٣٨٩ وما بعدها والتفسير الكبير جـ٨ ص ١٤٦. وما بعدها، ص١١٥، ١١٦ط مطبعة الأمانة القاهرة.
(٤) فى البلاغة القرآنية أسرار الفص والوصل.د صباح عبيد دراز".

ثم تأمل فى اسم الإشارة "ذلك" وهو يشار به إلى ما سبق من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والصبر على ما يصيبه، وقد جعلت هذه الأمور فى مكانه عالية، ومنزله سامية، أومأ إليها اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، وكأنه يريد أن يقول، إن القيام بهذه الأمور على أتم وجه وأكمله، والوصول إلى غاية الأمر فيها ومنتهاه، يحتاج إلى التسلح بالعزم، والإرادة، وقوة الروح، وروح القوة،لأن الطريق إلى تمامها،وكمالها،وغايتها،طويل وشاق .

ثم إن التعبير بالمصدر فى قوله: "عزم" بوزن "فعل"، بدل "معزوم" بوزن مفعول، فيه مبالغة فى تصوير ما تحتاجه تلك الشعائر من جد واجتهاد، "فالعزم: الجد، والعزم: ما عقد عليه قلبك من أمر، أنك فاعله"(١)، وجعل إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على ما يصيب الإنسان من عزم الأمور .

لأن الله عزمها أى: أوجبها على عباده. ومادام الله قد أوجبها، فلابد من الاجتهاد فى القيام بها، على أتم وجه وأكمله .

"أو المعنى: أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم، والسالكين طريق النجاة"(٢) .

قوله تعالى:﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٣) .

وهو انتقال من لقمان بابنه إلى الآداب فى معاملة الناس فنهاه عن احتقارهم، وعن التفخر عليهم، وهذا يقتضى أمره بإظهار مساواته مع الناس، وعد نفسه كواحد منهم"(٤) .

---

(١) راجع اللسان مادة عزم .
(٢) المحرر الوجيز جـ٤، ص٣٥١.
(٣) لقمان: ١٨.
(٤) التحرير والتنوير جـ ٢١، ص١٦٦.

"تصعر" الصعر: ميل فى الوجه، وقيل: الميل فى الخد خاصة، وقد صعر خده وصاعره: أماله من الكبر، والصعر: داء يأخذ البعير فيلوى منه عنقه ويميله. والتصعير: إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر، كأنه معرض[١].

وهو تمثيل للاحتقار، لأن مصاعرة الخد، هيئة المحتقر المستخف فى غالب الأحوال"[٢].

والمعنى: " أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولهم وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون"[٣].

وهذا يعنى أن النهى هنا ليس عن خصوص مصاعرة الحد ولكن عما يوحى به ذلك الفعل، وتلك الحركة من الكبر، واحتقار الآخرين، وأنت إذا تأملت صورة الرجل الذى يصعر خده، أدركت ما وراءها من سخرية، وكبر، وامتهان، وتحقير للناس، سواء أكان ذلك بالفعل أو الإشارة أو الحركة.

وإنما عدل عن ذلك إلى النهى عن تلك الصورة، وهذه الهيئة، لإظهار المتكبر فى صور قبيحة مستهجنة، وللإشارة إلى ما يعانيه ذلك الصنف من الناس، نتيجة شعورهم بالتعالى، والكبر، ومحاولة إظهار ذلك للناس، ولو حساب راحتهم.

ولعل: تضعيف الفعل "تصعر" يرمى إلى ذلك، لأن هذه الصيغة تدل على التكلف، والتعمد، والتصنع والمبالغة "لأن الأغلب فى "فعل" أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل"[٤].

---

(١) اللسان مادة (ص ع ر).
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ٤٨٢.
(٣) الكشاف للزمخشرى جـ٣، ص ٤٨٢.
(٤) راجع معانى "فعل" بشرح شافية ابن الحاجب، تأليف الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النحوى مـ١، جـ١، ص٩٢ وما بعدها.

فكأن هيئتهم هذه مخالفة لطبيعة الجسد، ولما ينبغى أن يكون عليه الخد من هيئة، ولذلك كان فى هذا التصنع، وتلك المبالغة فى إظهار الكبر بتلك الهيئة، قدر كبير من المشقة.

وبلاغة الكلام هنا تكمن فى مجيئه على طريق الكناية والتمثيل، فكأنه تعقل من هذا الكلام معنى: وهو: تصعير الخد، ثم يدلك ذلك المعنى، وتلك الهيئة على معنى آخر، هو المنهى عنه فى الحقيقة.

ولذلك يقول عبد القاهر: فههنا عبارة مختصرة، وهى أن تقول: "المعنى" "ومعنى المعنى"، تعنى بالمعنى، المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة، و " بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى، إلى معنى آخر"[1].

وخصوبة الكناية تكمن فى عدم دلالتها على المعنى مباشرة "وإنما تلوح، وتومئ وتشير، وتترك تحديد المراد، والنص عليه للقوى والملكات البيانية، تشقق فيما وراء الحجب صنوفاً من المعانى، وضروباً من الإشارات"[2].

وقوله: "ولا تمش فى الأرض مرحاً" هو أيضاً تمثيل كنائى، ليس للهنى عن خصوص المشئ على هذه الحال، ولكن عن التبختر والاختيال.

والمرح: شدة الفرح، والنشاط، حتى يجاوز قدره، وقيل المرح: التبختر والاختيال، وقيل المرح: الأشر والبطر، ومنه قوله تعالى فى أهل النار: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[3].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٦٣.
(٢) التصدير البيانى: د. محمد محمد أبو موسى ص ٣٧١.
(٣) غافر : ٧٥.

و"أوقع المصدر موقع الحال من ضمير "تمش"، ومجئ المصدر حالاً كمجيئه صفة، يراد منه المبالغة فى الاتصاف، وتأويله باسم الفاعل أى: لا تمشى مارحاً، أى مشية المارح. وهى المشية الدالة على كبرياء الماشى بتمايل وتبختر[1]، والمشى مرحاً، أن يكون فى المشى شدة وطء على الأرض، وتطاول فى بدن الماشى.

وموقع قوله: "فى الأرض" بعد "لا تمش" مع أن المشى لا يكون إلا فى الأرض فيه إيماء إلى حقيقة الإنسان وبدايته، ونهايته، وكأنه يذكر هذا الذى يتمايل، ويتبختر، ويطء الأرض بشدة، بحقيقته، ونهايته حتى يكون فى ذلك واعظا له يحثه على التواضع، والتوسط والاعتدال. فمنها خلق وإليها يرجع، ثم إنه "يمش فى الأرض"، أى ليس هناك ما يميزه عن الناس، فلو كان يطير فى الهواء أو يسير فى الماء، لقلنا حق له ذلك، ولكنه يسير فى الأرض التى يسير فيها كل الناس، فما الذى حمله على أن يمشى فيها مرحاً؟!

ثم يأتى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ليجيب عما عساه يكون قد أثير فى النفس بسبب النهى عن تصعير الحد،والمشى فى الأرض مرحاً. ولذلك فصل عما قبله كما فصل قوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[2]، وقوله:﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

"والمختال": المتكبر. وقيل: الصلف المتباهى، الجهول الذى يأنف من ذوى قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يحسن عشرتهم[4]، والخيلاء: الكبر والعجب.

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٥، ص١٠٣.
(٢) لقمان: ١٧.
(٣) لقمان: ١٣.
(٤) اللسان مادة ختل.

"والفخور": هو من يدعى العظم والكبر والشرف.

والمعنى: أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين، لأن هذين الوصفين فى الإنسان هما منشأ غلظته، وجفوته، وقسوة قلبه، فالاختيال: يورث النفس كبراً وتيها وعلوا، مما يكون سببا فى عدم التفات المختال إلى الناس.

والفخر: يقتل الإخلاص، ويدفع صاحبه إلى فعل ما يفعل طلباً للرياء والسمعة، وليتخذ من فعله سببا للتكبر والتعالى على الناس. وكلا الوصيفين مناف لما ينبغى أن يكون عليه العبد من تواضع وخشوع وإخلاص.

قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[1].

القصد فى الشئ: خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد فى المعيشة: أن لا يسرف ولا يقتر، وقصد فى مشيه: إذا مشى مستوياً. والقصد: الوسط العدل بن طرفين. "واغضض": غض وأغضى: إذا دانى بين جفنيه ولم يلاق.،وغض طرفه وبصره: يغضه غضاً وغضاضة فهو مغضوض وغضيض: كفه وخفضه وكسره[2].

والقصد فى المشى يراد به العدل فيه، حتى يكون مشياً بين مشين: أى لا تتبختر، ولا تدب دبيب المتماوتين.

يقول الزمخشرى: "ومن المجاز قصد فى معيشته واقتصد، وقصد فى الأمر إذا لم يجاوز فيه الحد، ورضى بالتوسط لأنه فى ذلك يقصد الأسد[3]، وعلى هذا يكون "القصد هنا مستعاراً، حيث شبه

---

(١) لقمان : ١٩.
(٢) راجع اللسان مادة قصد وغضض.
(٣) أساس البلاغة للزمخشرى مادة: قصد.

الاستواء فى المشى، الذى هو بين طرفى التبختر والدبيب، بالقصد وهو: الوسط العدل بين طرفين، بجامع عدم التجاوز، أو المغالاة فى كل، ثم استعير القصد للاستواء، واشتق منه "اقصد" بمعنى استو. لأن سرعة المشى قد تؤذى من يكون فى طريقه، والدبيب يذهب بما ينبغى أن يكون عليه المؤمن من قوة. فكان التعبير بالقصد مشيراً إلى أهمية الاستواء، وأن الميل إلى أحد الطرفين، يعد من باب التجاوز، والمغالاة، والتفريط.

وغض الصوت: خفضه، وجعله دون الجهر. "وجئ بـ "من" الدالة على التبعيض لإفادة أنه بغض بعضه، أى بعض جهره، اى ينقص من جهورته، ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار"(١).

وقوله: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير".

"أنكر الأصوات" أقبحها، لأن النفوس تنفر منه وتستوحشه. وهو تعليل للأمر بالغض من الصوت، ولذلك فصل عنه، كما يفصل الجواب عن السؤال.

والحمار: مثل فى الذم البليغ، وكذلك نهاقه، ولذلك كانوا يرغبون عن التصريح به، فيكنون عنه بقولهم: طويل الأذنين، وقد أشار الزمخشرى إلى بلاغة هذا التعبير وأنه مسوق للمبالغة الشديدة فى ذم وتهجين من يرفع صوته، إضافة إلى التثبيط والترغيب عنه، والتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان.

فذكر أن الكلام هنا فيه استعارة بنيت على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم أخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الاستعارة.

فيقول: "فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة،

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٦٨.

وأن جعلوا حميراً، وصوتهم نهاقا – ومبالغة شديدة فى الذم والتهجين، وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان"[1].

وأنت تلاحظ أن الأمر بالقصد فى المشى لم يعقبه تعليل، وعقب الأمر بغض الصوت بقوله : "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"، فذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى.

ويشير الإمام فخر الدين الرازى إلى السر فى ذلك بقوله: " إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب، إن أدركه بالمشى إليه فذاك، وإلا فيوقفه بالنداء فنقول: رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن، وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى، أو إن كانت تؤذى، فلا تؤذى غير من فى طريقه، والصوت يبلغ من على اليمين واليسار، ولأن المشى يؤذى آلة المشى، والصوت يؤذى آلة السمع، وآله السمع على باب القلب، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى"[2].

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٨٣.
(٢) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٣٢.

خاتمة فى بيان علاقة مطلع السورة بما ورد فيها من مقاصد حتى نهاية الآية رقم (٢٠)

من خلال التأمل فى مطلع السورة، وما ورد فى ثناياها من معانى ومقاصد اشتملت عليها، تجدها قد ارتبطت بالمطلع برباط محكم، فكان المطلع بما فيه من إشارة إلى حكمة الحق سبحانه – عن طريق الإشارة إلى أقواله المحكمة، التى هى آيات الكتاب الحكيم، وأفعاله المحكمة كخلق السموات ورفعها بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض كيلا تميد وتضطرب – كالأصل الذى تتفرع منه أغصان شتى.

وتأمل أنت قول الحق: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾[1] وكيف تشير إلى حكمة منزل الكتاب، وإذا ثبتت حكمته من جهة كلامه، استلزم ذلك أن يكون حكيما فى أفعاله. بما يعنى تنزهه عن كل نقص فى قوله أو فعله، فيستلزم ذلك وحدانيته. وكل معنى فى السورة يمد بخيط إلى ذلك الأصل، ويرتبط به.

فالآيات من ٣ وحتى ٩ تبين أثر آيات الكتاب الحكيم على من هيأ نفسه لاستقبالها، وأنها هداية ورحمة، ومع ذلك نجد من ينأى بنفسه عنها مستكبراً كأن لم يسمعها، ثم تكشف عن جزاء كل فريق منهم، وذلك فى إشارة إلى البعث.

والآيات من ١٠ وحتى ١١ تشير إلى حكمة الحق سبحانه فى أفعاله، والتى هى خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض لئلا تميد وتضطرب، وأن أحداً غيره لا يستطيع أن يخلق شيئاً من هذا، وذلك فى إشارة إلى تفرده بهذه القدرة على الخلق المحكم.

---

(١) لقمان ١، ٢.

والآيات من ١٢ وحتى ١٩ أوردها الحق كنموذج ومثال لمن اهتدى بحكمة الله سبحانه، وهو "لقمان" فظهرت آثارها فى أقواله لابنه وأفعاله التى هى إخلاص العبادة والشكر لله سبحانه.

ويليه إن شاء الله تعالي الجزء الثانى من بداية الآية رقم (٢٠) وحتى نهاية السورة.

المصادر المراجع

١- أدوات التشبيه ، دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم د/محمود موسى حمدان ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبى السعود، ط:دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
٣- أساس البلاغة للزمخشرى .
٤- الأشباه والنظائر فى النحو، للعلامة جلال الدين السيوطى، ط:١ ١٤٠٥هـ -١٩٨٤ دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان .
٥- إعراب القرآن الكريم وبيانه، تأليف الأستاذ/ محيى الدين الدرويش، ط: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق بيروت .
٦- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية .
٧- البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى .
٨- البرهان فى علوم القرآن للزركشى، ط بيروت .
٩- التحرير والتنوير، للشيخ/ محمد الطاهر ابن عاشور .
١٠- التفسير البلاغى للإستفهام، د/عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة القاهرة .

١١- التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" للرازى، ط: دار الكتب العلمية بيروت.
١٢- حاشية السيد على المطول.
١٣- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى.
١٤- حاشية الانتصاف على الكشاف، للإمام أحمد بن المنير الإسكندرية.
١٥- الخصائص لابن جنى، ت : محمد على النجار ط:٢ دار الهدى بيروت.
١٦- خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة القاهرة.
١٧- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى، ط بيروت.
١٨- الدر المصون للثمين الحلبى، ت الخراط ط: دار القلم. دمشق.
١٩- دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى.
٢٠- روح المعانى للألوسى ط دار الكتب العلمية بيروت.
٢١- شرح شافية ابن الحاجب للرضى، تحقيق الأساتذة/محمد نور الحسن – محمد الزفزاف – محمد محى الدين عبد الحميد.
٢٢- الطراز للعلوى، ط: بيروت.
٢٣- عروس الأفراح فى شرح تخليص المفتاح للسبكى.

٢٤- فى البلاغة القرآنية – أسرار الفصل والوصل د/ صباح عبيد دراز مكتبة وهبة.
٢٥- كتاب الكبائر للذهبى، ط: بيروت.
٢٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى، ط: بيروت.
٢٧- لسان العرب لابن منظور.
٢٨- المحرر الوجيز لابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافى محمد ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٢٩- المطول لسعد الدين التفتازانى.
٣٠- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، ت: محمد محى الدين عبد الحميد.
٣١- مفتاح العلوم للسكاكى ت: د/ عبد الحميد هنداوى، ط:بيروت.
٣٢- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، ط:المكتبة التوفيقية. القاهرة.
٣٣- من أسرار التعبير القرآنى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د/محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة.
٣٤- الموسوعة الفقهية الكويتية ط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت.
٣٥- موسوعة النضر النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ ط. دار الوسيلة المملكة العربية السعودية.

٣٦- النحو الوافى لعباس حسن.
٣٧- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى ط دار الكتب العلمية بيروت .
٣٨- همع الهوامع للإمام السيوطى ط: دار المعرفة بيروت لبنان.
٣٩- الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، لأبى عبد الله الحسين بن محمد الدامغانى، ت: محمد حسن أبو العزم، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.